جورج بتّاي

حكاية العين





منشورات الجمل

جورج بتاي : حكاية العين




مكتبة
الفكر الجديد

جورج بتاي

حكاية العين

ترجمة: راجح مردان

منشورات الجمل



ولد **جورج بتاي** عام ١٨٩٧ في بيوم (بوي دو دوم) وتوفي عام ١٩٦٢ بباريس/ فرنسا. تعرف الى غالبية المثقفين المتمردين، خصوصاً من الوسط السوريالي. نشر العديد من المؤلفات الأساسية وساهم في إصدار العديد من المجلات التي لعبت دوراً في الحياة الفكرية الفرنسية. نشر بتاي كتابه **حكاية العين** لأول مرة عام ١٩٢٨ تحت اسم مستعار.

ولد **راجح مردان** عام ١٩٥٤ في جباع/ لبنان. أتم دراسته الجامعية ببيروت، وأقام عدّة سنوات بباريس، مارس الترجمة والكتابة للصحافة. يعمل اليوم ويقيم في بيروت.

جورج بتاي: حكاية العين، قصص، ترجمة: راجح مردان، الطبعة الأولى

رسمة الغلاف: ماكس فالتر سفانبرغ

Georges Bataille: Histoire de l'œl et la mort

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com



المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد

عين القط

رَبِيْتُ وحدي وأذكُرُ، إلى أبعد ما تسعفني الذاكرة، أنني كنتُ قلقاً حيال الأمور الجنسية. وكنت لم أبلغ السادسة عشرة بعد لمّاً التقيت فتاة في مثل سني تدعى سيمون عند شاطىء كذا.. ولأن قرابة ما، بعيدة، تربط ما بين أسرتينا، سرعان ما وثقت العلاقة بيننا. ولم تمضِ ثلاثة أيام على تعارفنا حتى اختلينا، سيمون وأنا، وحيدين، في دارتها. كانت تأتزر صداراً أسود بياقة منشّاة. وحين بدا أنها جعلت تقاسمني قلقي المعتمل ذاك اليوم تراءت لي عارية تحت صدارها.

كانت ترتدي جوربين من الحرير الأسود يلفّان ساقيها حتى أعلى الركبتين. وما كنتُ لأرى بَعْدُ عُرْيَها حتى الفرج (تلك التسمية التي نستخدمها أنا وسيمون بدت لي هي الأجمل من بين أسماء الجنس كلها) وإنما كانت مخيلتي تزيّن لي بأنني لو حسرت ذيل صدارها من الخلف لرأيت عجيزتها عارية.

في الرواق وُضِع طبق من الحليب طعاماً لقط.

ـ لقد صنعت الأطباق لكي نجلس عليها، قالت سيمون. أتراهن؟ بإمكاني أن أجلس على الطبق.

ـ أراهنك، بأنك لا تملكين الجرأة على ذلك، أجبتها وقد حُبست أنفاسي.



كان الجوّ حاراً. وضعت سيمون الطبق فوق مقعد، واستدارت لتقف بإزائي وجهاً لوجه، ودون أن تطرف عينيها المحدِّقتين بي، جلست مغمسة عجيزتها بالحليب. لبثت لبعض الوقت ذاهلاً بلا حراك، محتقن الوجه مرتعداً فيما راحت تحدق بذكري المنتصب تحت ثيابي. فاستلقيت عند قدميها. جمُدَت في وقفتها؛ وللمرة الأولى رأيت «لحمها الوردي والأسود» مبللاً بالحليب الأبيض. مكثنا طويلاً على هذه الحال، جامدين ذاهلين وقد اصطبغت وجناتنا بحمرة محتقنة.

ثم نهضت فجأة فسال الحليب على فخذيها حتى طرف الجوربين. مسحت الحليب بمنديلها واقفة فوق رأسي وقد رفعت ساقها وأسندت قدمها إلى طرف المقعد الصغير. رحت أفرك ذكري مهتاجاً سوية الأرض. وأنزلنا الشهوة معاً حتى دون أن يلمس أحدنا الآخر. ولكن عندما رجعت أمها إلى البيت وجلست على أريكة وطيئة، تحينت اللحظة التي انحنت فيها الفتاة بين ذراعي أمها المحتضنتين وحَسَرْتُ الصيدار من الخلف، في غفلة منهما، ودسستُ يدي بين الفخذين الدافئين.

هرعت عائداً إلى منزلي، مهتاجاً متلهفاً للاستمناء تكراراً. وعندما استيقظت صبيحة اليوم التالي، كانت عيناي محاطتين بدارات قاتمة. تفرست سيمون بوجهي ثم عانقتني وقالت: «لا أريد من الآن فصاعداً أن تستمني في غيابي».

وهكذا نشأت بيننا علاقات غرامية حميمة وملحاحة حتى أنه كان من النادر أن يمرّ أسبوع دون أن نلتقي. بديهي أننا لم نتحدث يوماً بهذا الشأن. وأدرك جيداً أن الأحاسيس التي تنتابها في لقاءاتنا شبيهة بأحاسيسي التي أعجز أن أعبِّر عنها بالكتابة.



أذكر، ذات يوم، أننا كنا سوياً في السيارة التي انطلقت بها مسرعاً، وصدمت فتاة جميلة على درّاجة وكاد أن يُفصل رأسها عن بدنها لشدة ما دهسته العجلات. ولبثنا هناك لبعض الوقت نرقب جسدها الميت. كان مقدار الفظاعة والقنوط اللذين ينبعثان من هذا اللحم المقزز من جهة والرقيق من جهة أخرى، يذكرنا بالشعور الذي ينتابنا يومياً حين نلتقي. فسيمون، في العادة، فتاة في منتهى البساطة. طويلة القامة وجميلة؛ ولا شيء في نظرتها أو في صوتها ينمُّ عن القنوط. ولكنها متعطشة إلى ما يخصّ الحواس وتكفي إشارة بسيطة لكي يحتقن وجهها مصطبغاً بلون الدم، مكتسياً بسمات رعبٍ مباغت، بالجريمة، وكل ما يقوّض، إلى الأبد، نعمة الغبطة وراحة الضمير. وكنت لمحت على محياها، وللمرة الأولى، ذلك التشنّج الصامت، المطلق ـ الذي أشاطرها إياه ـ يوم غمست إليتها في الطبق. ذلك أننا لا يتفرَّس واحدنا في وجه الآخر، ملياً، إلا في مثل تلك اللحظات. ولا نحسُّ بالدعة وننصرف إلى لهونا إلا خلال دقائق معدودة من الاسترخاء بعد بلوغنا النشوة.

ينبغي أن أقول هنا إننا بقينا لمدة طويلة لا نمارس الحب. نتحيّن السوانح للاسترسال في لهونا. لا لأننا افتقدنا الحشمة، بل على العكس من ذلك، لأن حرجاً ما كان يدفعنا دائماً لأن نتصدّى لها. هكذا لم تكد أن تطلب مني الامتناع عن الاستمناء بمفردي (وكنا واقفين عند حافة جرفٍ) حتى عرَّتني من سروالتي ومدّدتني سوية الأرض ثم شمّرت وجلست فوق بطني واسترخت. وأولجت في حيائها إصبعاً زلقته بماء ذكري. ثم استلقت واضعة رأسها تحت ذكري، وإذا استندت بركبتيها إلى كتفي، رفعت فرجها وقرّبته من وجهي الذي أبقيته مقابلاً له.



ـ أبإمكانك أن تبول في الهواء حتى فرجي؟ سألت.

ـ أجل، أجبتها، ولكن البول سيسيل على ثوبك ووجهك.

ـ ولمَ لا، قالت، وفعلت كما قالت، ولكنني حالما انتهيت، بللتها مجدداً ولكن، هذه المرة، بمني أبيض.

وما لبثت رائحة البحر أن امتزجت برائحة الثياب المبللة وبطنينا العاريين والمني. خيّم المساء وكنا لانزال على حالنا، ساكنين، عندما تناهى إلى سمعنا خفق نعلٍ يدوس العشب.

ـ لا تتحرك،، قالت سيمون راجية.

توقفت الخطى؛ وكنا عاجزين عن رؤية الوافد إلينا، فحبسنا أنفاسنا. كانت عجيزة سيمون المكوّرة، أمام عينيّ بمثابة تضرُّع ملحاح: على أكمل ما تكون؛ إليتان مضمومتان رقيقتان وبينهما شق عميق. وكنت واثقاً من أن الوافد المجهول (أو الوافدة المجهولة) سيستسلم لهذه الفتنة وسيجد نفسه منقاداً بدوره، إلى نزع ثيابه على الفور. عاودت الأقدام سيرها خطواً متسارعاً وتراءت لي فتاة فاتنة تدعى مارسيل هي الأكثر عذوبة من بين صديقاتنا وأكثرهنَّ إغواءً. كنا متلاصقين متشابكي الأطراف لا يملك أحدنا أن يحرك ساكناً، فما كان من صديقتنا البائسة إلا أن عثرت وارتمت بيننا فأطبقنا على هذا الجسد العاثر. حسرت سيمون التنورة وانتزعت الكيلوت وارتني، بثمالة فرجاً يضاهي فرجها جمالاً وكمالاً. ورحت ألقمه بشفتيّ، فيما أفرك براحة يدي فرج سيمون التي طوّقت بساقيها وركي مارسيل الغريبة الأطوار التي لم يبق خافياً منها سوى نحيبها.

ـ مارسيل، صحت قائلاً، أتوسّل إليك لا تبكي. أريدك أن تقبلي فمي.



فراحت سيمون هي التي تداعب شعره الجميل الناعم وتكسو جسده بالقبلات.

في تلك الأثناء تلبّدت السماء منذرة بعاصفة وشيكة. ومع تقدم الليل، هطل مطر غزير ملطّفاً الأجواء التي خلّفها ذلك النهار الحارّ الخانق. كان البحر هادراً تعلوه سماء مصدّعة برعد متماد وبروق تضيء كوضح النهار الفرجين المنتشيين للفتاتين اللتين مكثتا صامتتين. ثم كأن مساً مفاجئاً خلس أجسادنا منا. فمان فتيان يحتربان على إليتيّ وخصيتيَّ وذكري، مباعداً، ما استطعت، ما بين ساقي المبللتين بالريق والمني. كما لو أني أردت أن أنجو من عناق مسخ، وليس المسخ سوى عنف ارتهازي. كان المطر الساخن ينهمر طهطالاً وينسرب، متدفقاً من أجسادنا. رعد مدوٌّ يستثير الرهز المتواصل ويسعِّر حمانا وينتزع صراخنا المضاعف لدى التماع كل برقة تظهر لنا أعضاءنا الحميمة. كانت سيمون قد عثرت على نقحة وحل فخوضت بجسمها فيها: كانت تحك حياءها بالوحل وتنتشي، وحبال المطر تسوطها، ورأسي بين فخذيها المكسوتين بالتراب، ووجهها مدفون في الماء الموحل متمرغاً بفرج مارسيل مشدوداً إليه بقوة ذراعها التي أحاطت بخصرها، فيما اليد الأخرى تشدُّ أعلى الفخذ وتضرِّجه بقوة.




مكتبة
الفكر الجديد

الخزانة النورماندية

منذ ذلك الحين اعتادت سيمون فقص البيض بفرجها. ولهذا الغرض كانت تضع رأسها على مقعد أريكة وتلصق ظهرها بمسندها وقد طوت فخذيها نحوي فيما أغمر ذكري المنتصب وأمرغه لكي يُنزل على وجهها. كنت أضع البيضة عندئذٍ فوق حلقة الاست: وكانت تلتذ بتقبيلها داخل الشق العميق. وفي اللحظة التي ينقذف فيها المني تفقص البيضة بين إليتها، وتُنزل من نشوتها فأمرغ وجهي في شقها مغموراً بهذا الوسخ المتدفق.

ذات يوم افتضحت أمها أمرنا، غير أن هذه المرأة الفائقة الرقة اكتفت في المرة الأولى برغم الحياة المثالية التي عاشتها، بأن تراقب لهونا بصمت حتى أننا لم ننتبه إلى وجودها: أحسب أنها لم تقو على الكلام لهول ما رأت. وعندما أنهينا ما كنا فيه (وانصرفنا إلى ترتيب المكان على عجل)، انتبهنا إلى وجودها، واقفة بفتحة الباب.

ـ تظاهر بأنك لم تر شيئاً، قالت سيمون وهي تواصل تنظيف فرجها.

وغادرنا دونما استعجال.



بعد ذلك ببضعة أيام، عمدت سيمون التي جاءت لأداء، بعض التمارين الرياضية بصحبتي على صقالة مرآب، إلى التبوّل على تلك المرأة التي توقفت تحتها دون أن تراها. فتنحّت المرأة مجفلة وحدجتنا بنظرات كئيبة، فأثارت حيرتها البادية ميلنا لمواصلة لهونا. فبركت سيمون على الأربع، متصهصلة، باذلة فرجها أمام عيني، فرفعت ثوبها ورحت أداعب ذكري، غمراً وتمريخاً، وقد أثملتني رؤيتها عارية أمام والدتها.

كان قد مضى أسبوع لم نر مارسيل خلاله لمّا التقيناها صدفة في الطريق. بدت تلك الفتاة الشقراء مغالبة خجلها وسذاجة ورعها، فاحمرّت وجنتاها ما حدا بسيمون لأن تقبلها بحنان متجدد.

أرجو المغفرة، قالت لها بصوت خفيض. ما حصل في ذلك اليوم كان أمراً سيئاً؛ ولكن ذلك لا يحول دون أن نصبح أصدقاء الآن، وأعدك: لن نحاول من الآن فصاعداً أن نلمسك.

تقبّلت مارسيل التي لم تكن مثالاً في قوة الإرادة، اعتذارها وقبلت أن ترافقنا إلى دارة سيمون حيث سنتناول وجبة العصر الخفيفة برفقة بعض الأصدقاء. ولكن بدل الشاي احتسينا كميّات من الشمبانيا.

أربكتنا مارسيل التي احمرَّ وجهها خجلاً. غير أننا كنا، سيمون وأنا، على تفاهم تام، واثقين من أن لا شيء قد يُجبرنا على الاخلال بوعدنا إلى مارسيل، كان الحضور مؤلفاً من ثلاث فتيات وصبيين، وأكبرهم سناً لم يتجاوز السابعة عشرة. وقد فعل الشراب فعله ولكن، فيما عدا سيمون وأنا، لم يبلغ أحد منهم ما توقعناه من التشوش والإثارة. وكان الفونوغراف هو خشبة الخلاص. رقصت



سيمون بمفردها على أنغام راغتايم صاخب، حاسرة عن فخذيها حتى منبث الإليتين. لم تشأ الفتيات الأخريات أن يلبّين دعوتها للتعرّي لانشغالهنَّ بتمالك بهجتهنَّ؛ ثم أنهنّ يرتدين بناطيل: ولكنها لا تستر من عريهن الشيء الكثير. وحدها مارسيل، ثملة وصامتة، رفضت أن ترقص.

متظاهرة بأن السُّكر يتعتعها، دعكت سيمون شرشفاً ورفعته مقترحة رهاناً ما:

ـ أراهنكم، قالت، بأني سأبول على هذا الشرشف، وأمام الجميع.

كان الحفل مقتصراً على شلّة من الفتيان السخفاء والثرثارين. أحد الفتيان قَبل التحدّي. فحدّد الرهان ولم يعلن عنه. ولم تتردد سيمون لحظة واحدة وبالت على الشرشف. غير أن جرأتها هذه كأنها أصابتها بمسّ أربك كل من حولها.

ـ بما أن الرهان لم يعلن، قالت سيمون مخاطبة الخاسر بصوت أبحّ، سوف أنزع عنك سرولتك أمام الجميع.

وهذا ما فعلته دونما مشقة. وبعد أن نزعت عنه السروال، ألحقته بالقميص (لكي لا يبدو مضحكاً) ومع ذلك لم يحدث ما يمكن وصفه بالخطير: فبالكاد مدّت سيمون يدها وداعبت، بلمسة خاطفة، قضيب رفيقها. لكنها كانت تفكر في مارسيل التي راحت تتوسّل إليّ لكي أدعها ترحل.

ـ لقد وعدناك يا مارسيل بأننا لن نلمسك، فلماذا تريدين الرحيل؟

ـ لأني أريد، أجابت بعناد. (وقدِ استبدّ بها الهلع).



فجأة ارتمت سيمون أرضاً على مرأى الجميع الذين استبدّ بهم الذهول. ثم راحت ترتعد وتتلوّى بجنون، حاسرة الثياب، عارية الفرج، كأنها مصابة بنوبة صرع، متقلبة عند قدمي الفتى الذي عرّته، مغمغمة عبارات ليس لها تتمة:

- بلْ عليّ... بلْ في فرجي... كانت تردد ظمأى.

راحت مارسيل تراقبها بعينين شاخصتين: واحتقن وجهها وصارت وجنتاها بلون الدم. فقالت لي دون أن تراني أنزع عني ثوبي. فنزعت عنها ثوبها وثيابها الداخلية؛ وأبقت على زنّارها وجوربيها. ولم أكد أنزل شهوتها بفركي شفريها أو أنزل شهوتي على فمها، حتى اجتازت الحجرة كالمسرنمة وحين بلغت خزانة «نورماندية فتحتها وحبست نفسها فيها (بعد أن همست في أذن سيمون ببعض العبارات).

أرادت أن تداعب فرجها حتى النشوة في هذه الخزانة، ورجّتهم أن يدعوها وشأنها.

ينبغي القول أننا كنا مخمورين تذهلنا الجسارة التي يبديها كل منا. الفتى العاري تمصه فتاة. وسيمون واقفة، مشمّرة، تحك إليتها بالخزانة التي تتناهى إلى أسماعنا منها تأوّهات مارسيل وهي تنزل شهوتها بيديها.

ثم حدث فجأة أمر لا يصدق: خرخرة مياه أعقبها انسياب خيط ثم سيلٍ من المياه أسفل باب الخزانة. كانت مارسيل التاعسة تبول في خزانتها وهي تبلغ النشوة. وسرعان ما استحالت القهقهة الثملة التي علت إثر ذلك إلى معمعة من الأجساد المرتمية أرضاً، المتراكبة، المتشابكة الفروج والتنانير المبلّلة بالمني. كانت الضحكات تصدح مثل فواق تلقائي ليس أكثر من فاصل قصير في ذلك



السباق المحموم بين الفروج والذكران. ومع ذلك أمكن بعد وقت سماع مارسيل وهي تنتحب، وحيدة، وصوت نحيبها يعلو، أكثر فأكثر، في ملاذ الغبار ذاك الذي اتخذته الآن لها محبساً.

بمضيّ نصف ساعة، كنت قد أفقت من سكري قليلاً، وخطر ببالي أن أساعد مارسيل على الخروج من الخزانة. بدت الفتاة المسكينة البائسة، مرتجفة، مرتعدة من الحمى. وحالما رأتني بدرت منها علامات هلع مرضي. كنت شاحباً ملطخاً بالدم مهلهل الملابس. أجساد متسخة وحاسرة عن عريها، تهالكت خلفي راقدة كيفما اتفق. إثنان منا جرحا بحطام الزجاج وسالت دماؤهما؛ فتاة تقيأت؛ قهقهات مجنونة سرت بيننا كالعدوى وهزت أجسادنا حتى البلل، فمنا من بال في ثيابه ومنا من بال على أريكته أو على الأرضية؛ فكان أن سادت رائحة منفرة هي مزيج من روائح الدم والمني والبول والقيء، رائحة تثير الرعب، غير أن الرعب الحق تناهى إليّ من صرخة هتكت حنجرة مارسيل فاستبدّ بي هلع لم أعرفه من قبل. وينبغي أن أقول هنا إن سيمون كانت تنام حاسرة البطن، يدها على شعر عانتها، وسمات دعة على وجهها.

هرعت مارسيل مترنحة مطلقة نخيراً غير مفهوم، وما أن نظرت إليَّ مرة أخرى حتى تراجعت كأنها رأت الموت أمامها؛ ثم تهالكت على الأرض وراحت تصدر متتاليات من الصرخات الوحشية.

والغريب أن صراخها هذا أعاد إليّ بعض الإدراك. سوف يُفتضح أمرنا، لا محالة. ولم أسمع للفرار، لاستدراك ما يمكن استدراكه من هذه الفضيحة؛ بل، على الضد من ذلك، ذهبت إلى الباب وفتحته: ويا لهول ما رأيت، يا لبهجتي! ولا داعي هنا لذكر عبارات التعجب، والصراخ، وألوان الوعيد التي أطلقها الأهل حين



دلفوا إلى الحجرة: المحكمة، السجن، المقصلة، كلها كانت ماثلة في صراخهم الناري ولعناتهم المتشنجة. حتى رفاقنا انضموا إلى جوقة العويل. ما أفضى إلى ملغمة هاذية من الصراخ: كأنهم اشعلوا فجأة كما تشعل المشاعل.

ومع ذلك كان مشهداً فظيعاً! وبدا لي أن ما من شيء قد يوقف هذيان المجانين المضحك المبكي هذا. واصلت مارسيل، وهي مازالت عارية، تعبر، مومئة بالصراخ، عن ألمها المعنوي وعن هلعها الذي لا يوصف؛ وشوهدت تعض وجه وذراع أمها التي كانت تحاول عبثاً أن تمسك بها.

لقد أدّى تدخل الأهل المفاجىء إلى حرمانها ما تبقى لها من التعقل. فاستدعيت الشرطة. وشهدت الناحية بأسرها فضيحة لم يسبق لها مثيل.



رائحة مارسيل

لم يكن والدي في عدادهم. ومع ذلك ارتأيت أن أتسلل هارباً تحسباً لغضب أب عجوز هو الصورة المكتملة لجنرال خرف وكاثوليكي. دخلت إلى دارتنا من الباب الخلفي لكي أختلس مبلغاً كافياً من المال. ولأني أعلم يقيناً أنهم سيقلّبون المكان بحثاً عني، تواريت في حجرة أبي. تمكنت من الفرار عند العاشرة، ليلاً وقبل أن أغادر تركت رسالة مقتضبة على منضدة أمي:

«أرجو منكم ألاّ تبعثوا الشرطة في أثري. إني أحمل مسدساً. الرصاصة الأولى ستكون من نصيب الشرطي، أما الثانية فمن نصيبي أنا».

لم أسعَ يوماً وراء ما يسمى موقفاً؛ وإنما أردت أن أربك أهلي وهم ألدّ أعداء الفضيحة؛ ورغم أني كتبت هذه الرسالة بخفة، وبشيء من الدعابة، لم أتوان عن الاستيلاء على مسدس أبي وحملته في جيبي.

سرت طوال الليل تقريباً بمحاذاة خط الساحل ولكني لم أبتعد كثيراً عن كذا... نظراً لكثرة منعطفاته وتعرّجاته وخيّل إليّ أن



سيري على هذا النحو سيهدىء من روعي: ولكن هذياني كان يؤلف، على رغمي، استيهامات لسيمون ولمارسيل. ثم شيئاً فشيئاً راودتني فكرة أن أنتحر؛ وحين أمسكت المسدس بيدي كنت قد سهوت كلياً، عن معنى كلمات مثل رجاء أو يأس. وشعرت، عياءً، بضرورة، أن يكون لحياتي معنى برغم كل شيء. ولن يكون لها معنى إلا إذا اعترفت بأن بعض الحوادث قد تكون مرجوّة من قبلي. وقبلت بسطوة الأسماء: سيمون، مارسيل. وأدركت أنني مهما فعلت، فالواقع أن ما يحثني على السعي هو مركّب عجيب حيث سبلي، مهما بدت مستهجنة، ترتبط بلا ريب بسبلهما.

نمت في مرجة خلال النهار. وقصدت دارة سيمون خلال الليل؛ اجتزت الحديقة قافزاً من فوق السور. كانت غرفة صديقتي مضاءة: رميت نافذتها ببضع حصوات؛ فوافتني سيمون. مشينا باتجاه البحر صامتين. كنا فرحين للقائنا. كان الظلام حالكاً، وكنت، من حين لآخر، أرفع ثوبها وأقبض فرجها براحة يدي: فلا أشعر بأي لذة. جلست واستلقيت عند قدميها: وأدركت أنني على وشك البكاء. وبالفعل، لقد بكيت طويلاً فوق الرمل.

ـ ما هذا؟ قالت سيمون.

وركلتني على سبيل الدعابة. صدمت قدمها المسدس في جيبي وانطلق دويّ هائل فصرخنا مجفلين. لم أصب بسوءٍ ووجدتني واقفاً، ذاهلاً، كأنني عبرت إلى عالم آخر. وبدت سيمون، هي أيضاً، ممتقعة الوجه، مذهوبة الخاطر.

في ذلك اليوم لم نؤت الرغبة في بلوغ النشوة بالمداعبة.

بل كانت بين فمينا قبلة متمادية، وهو الأمر الذي لم نفعله من قبل.



أمضيت بضعة أيام على هذه الحال: لا نعود من ترهاتنا إلاّ في ساعة متأخرة من الليل. وننام في غرفتها حيث أبقى متوارياً إلى أن يحلّ الليل. وكانت سيمون تحضر لي طعاماً. وكانت أمها التي تعوزها صرامة التدبير (فقد آثرت يوم الفضيحة أن تغادر البيت ما أن سمعت الصراخ) تتقبل الموقف على نحو ما. أما الخدم، فكان المال الذي يبذل لهم بسخاء منذ وقت طويل كفيلاً بأن يضمن تفانيهم حيال سيمون.

وقد علمنا بظروف استشفاء مارسيل والمصحة التي احتجزت فيها. منذ اليوم الأول كان هاجسنا الوحيد أن نطمئنّ إلى حالها، أن نعرف شيئاً عن جنونها، عن عزلة جسدها، والسبل الممكنة لرؤيتها، وربما تدبير فرارها.

ذات يوم، حاولت أن أضاجع سيمون عنوة.

ـ أنت معتوه! صاحت قائلة، ألا تدرك يا صغيري أن الأمر لا يعنيني، في سرير، مثل ربّة أسرة! بحضور مارسيل...

ـ كيف؟ قلت مبدياً بعض الخيبة، ولكني في قرارتي لا أخالف رأيها.

ثم اقتربت مني مجدداً محبة عطوفاً وقالت بنبرة حالمة:

ـ .... عندما ترانا متضاجعين... ستبول في ثيابها.. هكذا...

وأحسست بسائل دافىء يتدفق على فخذي. وعندما أنهت فعلتها، بللتها أنا أيضاً، ثم نهضت واعتليت رأسها ومرغت وجهها بالمني. فأنتشت، متسخة، بنشوة شيطانية. وراحت تتنشق رائحتنا المبهجة.



ـ أتشم رائحة مارسيل، قالت، وأنفها بارز من بين خصيتي المبللتين.

غالباً ما كانت تستبد بنا رغبة في المضاجعة. غير أننا استبعدنا، نهائياً، فكرة أن نفعل ذلك قبل مجيء مارسيل التي مازال صراخها مدوياً في آذاننا ومتصلاً باضطراب رغباتنا. لم يكن حلمنا في ظروف مماثلة سوى كابوس طويل. ابتسامة مارسيل، صباحا، نحيبها، الخجل الذي يصبغ وجنتيها بحمرة الدم، ثم محتقنة حتى التعرق تنزع ثوبها وتبذل إليتها المستديرتين الجميلتين لأفواه نجسة، والهذيان الذي جعلها تلوذ بالخزانة لتفرك فرجها بجموح أفلت بولها، وكل هذا يشوّش رغباتها ويهجّدهما إلى أبعد حد. وكانت سيمون التي بدا سلوكها جهنمياً أثناء الفضيحة (إذ لم تستر عريها بل، على العكس فرقت ما بين فخذيها)، عاجزة عن نسيان تلك النشوة المباغتة والمتأتية من استهتارها هي، ومن العويل من حولها، ومن عري مارسيل، نشوة فاقت بشدتها كل ما تخيلته من قبل. فما عاد فرجها ينفتح أمامي إلا إذا تراءى شبح مارسيل المهتاجة، الهاذية أو المحتقنة، ليمنح ملذاتها الخاصة بعداً مرعباً، كما لو أن التدنيس يحيل الأشياء عادة إلى أشياء منفرة وفاضحة.

وبأية حال، إن مناطق الفرج السبخية التي لا تشبهها إلا أيام الفيضانات والعواصف أو الغازات البركانية السامّة، والتي لا تصبح ناشطة، كالعواصف والبراكين إلا مصحوبة بما يشبه الكارثة ـ هذه المناطق المثبطة التي كانت سيمون، في استسلام لا يشي بغير العنف، تبذلها أمام عينيّ المنومتين، ما عادت بعد اليوم في نظري إلاّ السطوة الخفية لمارسيل المعذبة في سجنها والتي غدت فريسة الكوابيس. وبتّ لا أفهم حتى، سوى أمر واحد: مقدار الدمار



الذي تخلفه النشوة الجنسية في وجه الفتاة المنتحبة نحيباً يشقّه الصراخ.

وباتت سيمون، من جهتها، لا ترى المني الذي أقذفه إلاّ إذا رأت، في الوقت نفسه، فم مارسيل وفرجها مبللين بدفقه الغزير.

ـ كان بإمكانك أن تصفع وجهها بمنيك، قالت لي، وهي تمرخ فرجها به، «لكي يصاعد منه دخان».




مكتبة
الفكر الجديد

لطخة شمس

كنا قد فقدنا كل اهتمام بالنساء الأخريات وبالرجال الآخرين. وباتت مارسيل هاجسنا، فنتخيل بصبيانية أنها تشنق نفسها عمداً، ثم تدفن خلسة ولا تكف عن الظهور علينا بعد موتها. ذات مساء، وبعد أن زوّدنا بمعلومات دقيقة قصدنا، على درّاجة، المصحة التي احتجزت فيها. وقطعنا في أقل من ساعة عشرين كيلومتراً هي المسافة التي تفصلنا عن قصر محاط بحديقة ومعزول عند حافة جرف مطل على البحر. وكنا نعلم أن مارسيل تشغل الغرفة رقم ٨ ولكن الوصول إليها يتطلب منا الدخول إلى المبنى. فلم يكن أمامنا إلا التسلل عبر النافذة بعد نشر قضبانها. وفيما كنا حائرين في أمر الاهتداء إلى الغرفة من الخارج لفتنا مشهد غريب. فما أن قفزنا من فوق الحائط ووجدنا أنفسنا داخل الحديقة حيث ريح عاتية تتلاعب بقوة بالأشجار حتى لمحنا نافذة تفتح عند الطبقة الأولى، وخيالاً يربط بأحكام طرف شرشف بأحد القضبان. وراح الشرشف يصطفق مع الريح فيما تغلق النافذة على عجل قبل أن يتسنى لنا التثبت من هوية الخيال الذي تراءى لأعيننا من خلالها.



كان اصطفاق ذلك الشرشف الأبيض الهائل صاخباً فيطغى على هدير البحر وعزيف الريح. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها سيمون وقد صرفها عن فحشها أمر آخر: التصقت بي خافقة القلب شاخصة العينين محدقة بهذا الشبح المهتاج في ليلٍ كهذا، وكأن المس بذاته قد رفع رايته فوق هذا القصر المشؤوم.

لبثنا بلا حراك، سيمون جامدة بين ذراعي، وأنا نفسي شبه مذهوب العقل، عندما بدت الريح فجأة كأنها مزّقت السحب وأضاء القمر بوضوح متناهٍ تفصيلاً غريباً ومؤثراً غصّت سيمون لرؤياه: كان الشرشف الذي تبسطه الريح بجلبة مسمومة متسخاً من وسطه بلطخة رطبة جعلها ضوء القمر الساطع شفّافة بارزة للعيان...

وفي غضون لحظات حجبت السُّحب القمر المستدير مجدداً: وتوارت الأشياء من حولنا طيّ الظلام.

مكثت واقفاً، مذهولاً متطاير الشعر مع الهواء، منتحباً مثل مفجوع فيما راحت سيمون المتهالكة على العشب تعول مثل طفل وقد أصابتها رعدة من يغص بالبكاء.

هكذا علمنا أنها صديقتنا البائسة، أن الطيف الذي فتح النافذة المعتمة هو مارسيل من دون شك، وأنها هي التي ربطت بقضبان سجنها شارة اليأس الهاذية تلك. لا بدّ أنها تفرّكت في سريرها مضطربة الحواس، أيما اضطراب حتى بلغت نشوتها وأنزلت؛ ثم عمدت، كما رأينا، إلى ربط الشرشف بالقضبان مسدلاً إلى الخارج لكي يجف.

لم أدرِ ماذا أفعل في تلك الحديقة قبالة ذلك المنتجع المزعوم ذي النوافذ المحصنة بالقضبان. فابتعدت تاركاً سيمون ممددة على



العشب. كل ما أردته أن أتنشق الهواء، هنيهات، بمفردي، ولكنني لمحت، عند الطبقة الأرضية، نافذة مفتوحة، غير محصنة بالقضبان. تحسست مسدسي في جيبي ودخلت: كانت صالة كأي صالة أخرى. ومستعيناً بمصباح جيب انتقلت إلى ردهة ثم إلى درج. لم أكن قادراً على الرؤية، ولم يفض بي الدرج إلى أي مكان: لم تكن الغرف مرقمة. وكنت، بأية حال، عاجزاً عن الإدراك كأنني مسست بسحر ما؛ ولم أدرِ في تلك اللحظة لم خلعت سروالي وتابعت استكشافي القلق للمكان عارياً إلاّ من قميص. نزعت عني ثيابي قطعة تلو الأخرى ووضعتها على الكرسي ولم أبق إلاّ على حذائي. مصباح بيدي اليسرى، ومسدس بيدي اليمنى، وسرت متلمساً طريقي كيفما اتفق. جلبة ما تناهت إلى مسامعي فأطفأت مصباحي. ووقفت بلا حراك، مصغياً إلى أنفاسي المتقطعة، دقائق متطاولة من القلق والترقب انقضت دون أن أسمع شيئاً، فأشعلت مصباحي مجدداً: صرخة مكتومة جعلتني أهرع هارباً ناسياً ثيابي على الكرسي.

كنت أشعر بأن هناك من يطاردني؛ فاندفعت مغادراً المكان وقفزت من النافذة ولذت بممر. وبالتفاتة خاطفة لمحت عبر فتحة النافذة امرأة عارية: قفزت، مثلي، إلى الحديقة وهرعت راكضة باتجاه دَغل شائك.

لم يكن هناك في غضون هنيهات القلق تلك، ما هو أعجب من بقائي عرضة للريح، عارياً في ممر في حديقة مجهولة. وبدا كأني غادرت الأرض، يحتثني على ذلك الهبوب الفاتر الذي يجتاح الأرجاء. وكنت حائراً بم عساني أفعل بالمسدس: إذ لم يعد لي جيب أضعه فيه. لحقت بالمرأة التي اجتازت الحديقة أمامي



كأنني أريد أن أقتلها. كان اضطراب العناصر المهتاجة من حولي، طقطقة الأشجار واصطفاق الشرشف، يضاعف من تشوش أفكاري وأحاسيسي فيختلط في ذهني كل مغزى لنواياي وحركاتي.

توقفت! كنت وصلت إلى الدغل حيث توارى خيال المرأة منذ بعض الوقت ورحت أجيل بصري في الأنحاء، منتشياً وبيدي المسدس: في تلك اللحظة أحسست بأن جسدي يتصدّع؛ يد مريقة أمسكت ذكري وراحت تخضه، غامرة مفرجة، فيما شفتان بليلتان حارقتان تلجان الشق بين إليتي، وصدر عار وفخذان عاريان لامرأة تلتصقان بفخذي برهز نشوة متدفقة. لم يمهلني اهتياجي إلا هنيهة ريثما أستدير وأقذف مائي على وجه سيمون؛ كنت ممسكاً بالمسدس بيدي، ورعشة عنيفة تهز جسدي كعاصفة، فيما تصطك أسناني، وتزبد شفتاي، ويسري التشنج في ساعديَّ ويديّ، فاشدّ بجماع قبضتي على المسدس وعلى رغمي، تنطلق ثلاث طلقات عشوائية مدوية باتجاه القصر.

ثملين وطليقين نهضنا سيمون وأنا ورحنا نتراكض عاريين في أرجاء الحديقة مثل كلبين شاردين. كان وجيب العاصفة محتدماً فلم توقظ الطلقات سكان القصر. ولكننا حين نظرنا إلى النافذة حيث يصطفق الشرشف لاحظنا بكثير من الدهشة أن إحدى الطلقات اخترقت زجاجها ورأينا مصراع هذه النافذة المخلّع ينزاح عن ظلّ يتراءى للمرة الثانية.

لبثنا مذعورين كأن مارسيل ستهوي على حافة النافذة مضرّجة بدمها، ميتة أمام ناظرينا، وقفنا مذعورين تحت هذا المجلى الساكن، عاجزين حتى عن إسماعها صوتنا الذي طغى عليه عصف الرياح.



ـ ماذا فعلت بملابسك؟ سألت سيمون بعد وقت.

أجابتني بأنها سعت للبحث عني ولما لم توقفت في العثور عليَّ تسلّلت إلى داخل القصر كما فعلت أنا. ولكنها قبل أن تجتاز حافة النافذة تعرّت ظنّاً منها أنها بذلك ستكون أكثر قدرة على الحركة. وعندما أفزعتها لشدة فزعي وهي تلحق بي فرّت ولم تعثر على ملابسها. ولا بدّ أن الريح حملتها من مكانها. ومع ذلك لم يخطر ببالها، لانهماكها بمراقبة مارسيل، أن تسألني عن سبب عريي أنا أيضاً.

توارت الفتاة التي كانت تقف خلف النافذة. ومضت ثوان كأنها دهر؛ أضاءت اللمبة في غرفتها، ثم عادت إلى النافذة لتنشق الهواء الطلق، وسرّحت ناظريها باتجاه البحر. تطاير شعرها الباهت الناعم في الهواء، وأمكننا أن نتبيّن قسمات وجهها: لم تتغير، باستثناء تلك النظرة البرية الحائرة التي تتلائم مع ظاهر سذاجتها الطفولية. بدت في الثالثة عشرة وليست في السادسة عشرة. وبدا جسدها تحت غلالة النوم رقيقاً إلى امتلاء، ومشدوداً إلى بهتٍ، يضاهي نظرتها الشاخصة.

عندما لمحتنا أخيراً بدا أن دهشتها قد أعادت إليها الحياة. صاحت ولكننا لم نسمع شيئاً. لوّحنا بأيدينا؛ فاحمرّت وجنتاها حتى الأذنين. راحت سيمون، وهي مستسلمة للمس يدي على جبينها كأنها على حادة البكاء، تبعث لها بقبلات فتبادلها بمثيلات دون أن تبتسم. ثم أرخت سيمون يدها ملامسة بطنها حتى شعرتها. وحذت مارسيل حذوها واضعة إحدى قدميها على حافة النافذة حاسرة عن ساقها التي يلفّها جورب أبيض حتى منبت شعرتها الشقراء. إنه أمر غريب حقاً أن ترتدي حزاماً أبيض



وجوربين أبيضين، في حين أن السمراء سيمون التي ألصقت إليتها بكفيّ، ترتدي حزاماً أسود وجوربين أسودين.

راحت الفتاتان تتفركان حِرّيهما بحكات مقتضبة وشديدة، وجهاً لوجه في تلك الليلة العاصفة. انتصبتا بلا حراك، متشنّجتين، نظراتهما شاخصة بلذة لا توصف. وبدا كأن مسخاً ينتزع مارسيل من القضيب الذي تشبّثت به يدها اليسرى: ورأيناها، في نشوتها، تتهالك على ظهرها، ولم يبق أمامنا سوى نافذة شاغرة، فرجة مستطيلة تشق حلكة الليل، مشرّعة أمام أعيننا المتعبتين نهاراً يبزغ على عالم مكوّن من صاعقة وشفق.



خيط من الدم

في مخيلتي يقترن البول بملح البارود، وتقترن الصاعقة، لا أدري لماذا، بمبولة قديمة من طين محبحب، مهمل ذات يوم مطير من أيام الخريف على سطح توتياء لمغسل ثياب ريفي. منذ الليلة الأولى في المصحّة بقيت هذه التصوّرات الموحشة متصلة، في الجانب المعتم من نفسي، بفرج مارسيل البليل ووجهها المتأسي. غير أن هذا المنظر المنبثق من مخيلتي كان يُغمر فجأة بخيط من النور والدم: والحقّ أن مارسيل ما كانت تبلغ نشوتها دون أن تغمر نفسها لا بالدم، بل بدفق من البول الرقراق وحتى، في نظري، من البول الشعشاع. هذا الدفق المندفع بقوة في البداية، ثم المحبوس كفواق، ثم السيّال من تلقائه، هذا الدفق أشبه بحميا بهجة لا أنسيّة. وليس غريباً أن تكون أكثر الجوانب قحطاً وبرشاً من حلم ما مجرد تطلُّب بهذا المعنى؛ فهي تلبي انتظاراً عنيداً للمح ـ مماثل لرؤية الفجوة المضاءة لنافذة شاغرة، في اللحظة التي غمرتها مارسيل بإنزالها المتتابع إلى ما لا نهاية وهي تتهالك على أرضية الغرفة.



في ذلك اليوم، والعاصفة عقيم والليل معاد، كان علينا، أنا وسيمون، أن نفرّ من القصر ونتسلّ كالبهائم، بلا ملابس، مهجوسين بالقنوط الذي، بلا ريب، سيستبد بمارسيل مجدداً. وكان المحتجزة البائسة هي تجسيد للحزن والغضب اللذين، على الدوام، يبذلان جسدينا للفجور. بعد ذلك بقليل (وكنا عثرنا على درّاجتينا) لم يجرؤ واحدنا على النظر إلى الآخر متلبساً بذلك المنظر المنفر، والوسخ مبدئياً، لجسد عار راكب آلة. كنا ندوّس بسرعة لا نضحك ولا نتكلم، في العزلة المشتركة للفحش، والتعب والعبث.

كنّا منهوكين على الرمق الأخير. توقفت سيمون عند منتصف طريق منحدرة، وقد سرت في جسمها رعشة. كان العرق يتصبّب منا وسيمون ترتعد برداً. فنزعت أحد جوربيها لأمسح به جسمها: كانت رائحته دافئة كتلك التي تنبعث من أسرّة المرضى وأسرّة الفجور. ثم شيئاً فشيئاً تحسّنت حالها وألقمتني شفتيها امتناناً.

لم أشف من وساوس القلق، كنا لانزال على بعد عشرة كيلو مترات من «كذا»... وكان علينا نظراً لحالتنا، أن نصل، مهما كلّف الأمر، قبل بزوغ الفجر. كنت أقف مترنّحاً ملهوفاً لبلوغ نهاية هذه الرحلة الطويلة في كنف المستحيل. وبدا لي أننا غادرنا العالم الحق المأهول بأناس مكسوّين، منذ زمن بعيد فأصبح قصيّاً ليس بمتناول أيدينا. وراح مثل هذا الهذيان الذاتي يتعاظم هذه المرة دونما حدّ أو نهاية على غرار الكابوس الجامع للمجتمع البشري، مثلاً، بأرضه وأجوائه وسمائه.

كان جلد مقعد الدراجة ملتصقاً بفرج سيمون التي بحركة فخذيها تفرّكه به، دونما قصد، وتهتاج العجلة الخلفية كأنها تغور، بدورانها، في شق عجيزتها. وكانت حركة دورانها السريع تشبه



عطشي، تشبه ذلك الانتصاب في ذكري والذي يجذبني إلى هاوية الفرج الملتصق بالمقعد. كانت الريح قد هدأت قليلاً، وانقشع حيّز منجّم من السماء؛ فخطر لي أنه مادام الموت هو الخلاص الوحيد لانتصابي، فإن مقتلنا، سيمون وأنا، قد يبدِّل رؤيانا الشخصية بنجوم نقية، ويضع بمنتهى البرودة، ما بدا لي حداً نهائياً لمسلكي الفاجر، اشتعالاً هندسياً (مطابقة من بين مطابقات أخرى، بين الحياة والموت، بين الكون والعدم) وخاطف الزوال.

غير أن هذه الصور كانت لاتزال متصلة بتناقضات حالة الإنهاك المتمادي وبعبث انتصاب العضو الذكري. لم تكن سيمون لتلحظ هذا الانتصاب بسبب الظلام أولاً، ولأن فخذي الأيسر يخفيه على التوالي بحسب حركة قدمي على الدوّاستين. ومع ذلك خيّل إليّ أن عينيها تلتفتان في الظلمة نحو نقطة التصدُّع هذه من جسدي. كانت تنتشي بتفريك يزداد قوة وعنفاً. فهي، مثلي، لم تستنفد بعد تلك العاصفة التي أثارها عريها. سمعت أنينها الأجشّ؛ وكأن لذتها قذفت بها ورمت جسدها العاري على المنحدر يصحبه صرير المعدن المنزلق فوق الحصى.

وجدتها بلا حراك، متدلية الرأس: خيط رفيع من الدم سال من طرف شفتها. رفعت ذراعها فهوى دونما حياة. فارتميت على الجسد الجامد مرتعداً من الرعب، وفيما كنت أحتضنه سرت فيّ، على رغمي، رعشة تافل ودم، وتشنجت شفتي السفلى حاسرة عن أسناني كالحمقى.

استعادت سيمون وعيها تدريجياً وأيقظتني بحركة منها. صحوت من شبه الغفوة التي استغرقت فيها كالمنهار عندما ظننت أنني انزلقت على جثتها. لا أثر لجرح أو كدم على الجسد الذي لا



يكسوه سوى زنّار «جارفيل» وجورب وحيد. حملتها بين ذراعي وسرت بها متناسياً تعبي؛ مشيت بأسرع ما أمكنني (فقد لاحت تباشير الصباح). وبجهد خارق تمكّنت من الوصول إلى الدارة حيث مدّدت صديقتي المذهلة الحيّة على سريرها.

كان العرق دبقاً على وجهي. وكانت عيناي معتكرتين منتفختين؛ أسمع طنيناً في أذني وأسناني مصطكة، ولكني أنقذت من أحب، وفكرت أننا سوف نرى مارسيل قريباً؛ وهكذا مكسوّاً بالعرق والغبار الموحل، استلقيت لصق جسد سيمون واستسلمت، على الفور، لكوابيس مطوّلة.



سيمون

أعقبت حادثة سيمون الطفيفة فترة من الراحة. لكنها لزمت سريرها. وعندما تأتي أمّها انتقل خلسة إلى الحمام. وأنتهز الفرصة لأبول أو أستحم. ولما أرادت هذه المرأة أن تدخل إليه منعتها ابنتها.

ـ لا تدخلي، قالت، هناك رجل عار.

ثم تختلق سيمون أعذاراً شتى لكي لا تطوّل إقامتها فأستعيد مكاني على الكرسي بجانب السرير. أدخن وأقرأ الصحف.

كنت أحياناً أحتضن سيمون وأتحسس جسمها الساخن لارتفاع حرارتها؛ وكانت تبول بصحبتي في الحمام. ثم أشطف برفق فرجها فوق الحيض. كانت واهنة فلا أداعبها لوقت طويل.

ثم سرعان ما استهوتها لعبة رمي البيض في كرسي المرحاض؛ بيض مسلوق فيغرق، وبيض فارغ أو شبه فارغ. وتجلس هناك وتراقبها. كنت أجلسها على كرسي المرحاض: فتسترق النظر إليها من بين فخذيها، تحت الفرج؛ وفي آخر الأمر، أشد عتلة السيفون.

لعبة أخرى استهوتها، وهي أن تفقص بيضة على طرف حوض الاستبراء ثم تفرغها من تحت فرجها؛ وكانت أحياناً تبول عليها،



وأحياناً أخرى أخلع ثيابي وألقمها من قعر الحوض؛ وقطعت لي وعداً بأنها بعد شفائها ستفعل كما فعلت أمامي وأمام مارسيل.

في نفس الوقت كنا نتخيل أننا نمدّد مارسيل حاسرة عن فرجها، ولكن منتعلة ومرتدية ثوبها، في مغطس صفّ فيه البيض إلى نصفه لتبول عليه وهو ينكسر تحت وطأة جسدهما. وكانت سيمون تحلم أيضاً بأنني أحتضن مارسيل عارية بين ذراعي، فرجها إلى الأعلى، ساقاها مطويتان حول عنقي، ورأسها إلى الأسفل. أما هي فترتدي مبذلاً مبللاً بالمياه الساخنة ملتصقاً بجسمها وحاسراً عن ثدييها، وتقف فوق كرسي أبيض. فأداعب ثدييها بدس الحلمتين داخل أستون مسدّسٍ مذخر أطلقت منه رصاصة، الأمر الذي يهيجنا أولاً، ويبعث في الاستون رائحة البارود. وفي الأثناء تعمد سيمون إلى سكب الكريما الطازجة، من الأعلى، على إست مارسيل الداكن؛ وتبول في مبذلها أو إذا حسر المبذل، تبول على ظهر أو رأس مارسيل التي تتلقى، من الجهة المقابلة بولي أنا، وعندئذٍ سوف تغمرني مارسيل ببولها لأنها تطوّق عنقي بفخذيها. كما أنها تلقم ذكري المتدفق بولاً.

عادة حين تحلم سيمون مثل هذه الأحلام تدعوني لأن أمدّدها على أغطية مكدسة قرب كرسي المرحاض الذي تحني وجهها فوقه متكئة بساعديها إلى حافته لكي تثبت على البيض نظراتها الشاخصة. فأبرك لصقها فيتلاقى خدّانا وصدغانا. فترة طويلة من التأمل تهدىء من روعنا. وسرعان ما تنتبه سيمون على خرير مياه السيفون وقد زالت عنها وساوسها واستعادت صفاء سررتها.

ذات يوم، كانت شمس العاشرة صباحاً تضيء مواربة حجرة الحمام، فاكتسحت المياه بيضة شبه مفرّغة وغرقت أمام أعيننا وهي تُصدبر بقبقة غريبة؛ وكان لهذا الحدث تأثيره الحاسم على سيمون



التي تشنجت وانتشت بإنزال طويل متتابع، فيما لقمت عيني، على نحو ما، وراحتا تمتصها. ثم دون أن تكف عن مص عيني بهوس من يمصّ ثدياً، جلست جاذبة رأسي نحوها، وبالت على البيض العائم بقوة وتلذّذ ظاهرين.

عندئذٍ فقط استطعت أن أقول إنها شفيت. أبدت ابتهاجاً ظاهراً وحدّثتني مطولاً بموضوعات حميمة، هي التي لا تأتي، عادة، على ذكر ما يخصّني أو يخصّها. أسرّت إليّ، مبتسمة، أنها كانت، منذ قليل، تودّ أن ترضي حاجاتها الطبيعية كلها؛ وأنها أمسكت عن ذلك لتطيل أمد لذّتها. والحقيقة أن رغبتها هذه تكوّر بطنها، وأنها تشعر بشرجها منتفخاً كأنها وردة ينعقد برعمها. كانت يدي، عندئذٍ، في شقها. فقالت لي أنها بقيت على حالها وأن ملمسها رقيق. ولما سألتها عمّا توحي إليها كلمة «بال» أجابت «حفر» العيني بشفرة، شيء ما احمر اللون، الشمس. والبيضة؟ عين عجل، بسبب لون الرأس، ثم أن بياض (زلال) البيضة هو بياض العين، والمحّ (صفارها) هو البؤبؤ. فشكل العين، على ما قالت، هو شكل البيضة. وطلبت مني أن نعمل، حين نغادر الغرفة، أن نفقص بيضاً في الهواء، تحت الشمس، بطلقات المسدس. فبدا لي الأمر مستحيلاً، فناقشتني محتجة بأسباب مقنعة. كانت تلعب مرحة بالكلمات، فتارة تقول «فقص عيناً» وطوراً آخر تقول «اقتلع بيضة» مسترسلة في ما لا يعقل من التفسيرات.

وأضافت أنها ترى بأن «رائحة الإست» والضريط هي رائحة البارود، وأن سيلاً من البول هو «طلقة نارية ترى كأنها نور». كل إلية من إليتيها هي بيضة مسلوقة منزوعة القشر. وطلبنا أن يحضر الخدم بيضاً «برشت» ساخناً مكسوراً من طرفه الأعلى لكي نضعه على غطاء كرسي الحوض: وقطعت لي وعداً بأنها، عما قليل،



سوف تقضي حاجتها الطبيعية فوق هذا البيض. وكانت يدي لاتزال قابضة على إستها المنتفخ كما وصفته، وكان الوعد الذي قطعته بمثابة عاصفة في داخلنا.

ينبغي القول أيضاً أن غرفة مريض هي المكان المثالي لاستعادة الشبق الصبياني. وريثما يحضر البيض رحت أمص ثدي سيمون. وكانت تداعب رأسي. أحضرت أمها البيض فلم ألتفت إليها، وظنّاً مني أن الخادمة هي التي أحضرتها لنا، تابعت ما كنت فيه. ولما سمعت صوتها، لم أحرّك ساكناً لعجزي عن التخلي، ولو لثانية واحدة عن هذا الثدي: وشرعت أخلع ثيابي السفلى كأني أفعل لقضاء حاجة، دونما تبجّح ولكن تعبيراً عن رغبتي في أن تغادر الغرفة مقرونة بلذة، تجاوز الحدود. عندما غادرت الغرفة كان الليل قد حلّ. أضاءت اللمبة في الحمام. وراح كل منا، أنا وسيمون الجالسة على كرسي المرحاض، يأكل بيضة ساخنة؛ داعبت جسد صديقتي ماسحاً إياه بما تبقى من البيض، وخصوصاً شق ما بين الإليتين. ونظرت إليها سيمون غارقة لبعض الوقت، بيضاء ساخنة، مقشّرة وكأنها عارية تحت طيزها، فواصلت إغراق ما خرج من إستها محدثاً في سقوطه مثيل ما تحدثه البيوض بريشت.

وهنا ينبغي أن أقول: لم يحدث شيء من هذا القبيل بيننا منذ وقت بعيد؛ ولولا استثناءات قليلة، لقلت أننا امتنعنا كلياً عن ذكر البيض. وإذا رأينا بعضه لم نتمالك أنفسنا من الاحمرار خجلاً وتبادل نظرات الاستفهام المرتبكة.

سوف تبيّن خاتمة السرد أن هذا الاستفهام لن يبقى بلا جواب، وأن الجواب كشف هوة الفراغ التي حفرها في أعماقنا لهونا بالبيض.



مارسيل

كنا نجتنب أنا وسيمون أي تلميح إلى موضوع هجاسنا. وشطبت كلمة «بيضة» من قاموسنا. كما أننا لم نكن نتحدث لا عن ميل واحدنا إلى الآخر، ولا عما تمثله مارسيل في أعيننا. طوال فترة مرضها لزمنا أنا وسيمون تلك الغرفة منتظرين اليوم الذي سنعود فيه لرؤية مارسيل بتلهُّف التلميذ الذي ينتظر لحظة الانصراف من المدرسة. وكنا أحياناً نتخيل صوراً غائمة من تلك اللحظات. أهيء شريطاً وحبلاً ذا عقد ومنشار معدن تنكبّ سيمون على تفحصه بعناية. أحضر الدرّاجتين المركونتين في دغل وأزيّنهما بأناة وأجهّز من بينهما درّاجتي بسندي رِجْل لأنني سأقلّ إحدى الفتاتين خلفي. فليس أيسر من أن تحيا مارسيل مثلي، لبعض الوقت على الأقل، في غرفة سيمون.

مضت ستة أسابيع قبل أن تتمكن سيمون من اللّحاق بي إلى المصحة. إنطلقنا خلال الليل، كنت لا أزال حريصاً على الاختباء خلال النهار لكي لا نلفت الانتباه. وكنت ملهوفاً لبلوغ المكان الذي أتخيله قصراً مسكوناً بالأرواح لفرط ما تمتزج في ذاكرتي



كلمتا «مصحة» و«قصر» بذكرى الشرشف الشبحي وتلك الدارة الصامتة المأهولة بالمعتوهين. والغريب أنني كنت أشعر كأنني ذاهب إلى بيتي بينما تشعرني كل الأمكنة الأخرى بشيء من الضيق.

وقد أكد شعوري هذا إنطباع راودني حالما قفزت عن حائط السور وطالعني المبنى منتصباً أمام عيني. وحدها نافذة مارسيل كانت مضاءة، ومشرعة على مصراعيها. حصوات الممر التي قذفت إلى داخل الغرفة نبَّهت الفتاة؛ عرفت من نكون وانصاعت لتعليماتنا التي أشرنا بها إليها بالإضافة إلى التزام الصمت. رميت الشريط الموصول بثقال إليها؛ ثم عاودت رميه إليَّ بعد أن مررته خلف أحد القضبان. لم تعترضنا أية صعوبة. رفع الحبل بواسطة الشريط وتسلّقته حتى النافذة.

تراجعت مارسيل في البداية حين هممت بتقبيلها واكتفت بمراقبتي منهمكاً بنشر أحد قضبان النافذة. وطلبت منها برفق أن ترتدي ثيابها لترافقنا؛ كانت ترتدي مبذل استحمام. أولتني ظهرها منصرفة إلى ارتداء جوربين من حرير ثبتت أطرفهما بحزام من الأشرطة الحمراء الفاقعة مبرزة عجيزتها ذات البشرة النقية المفرطة في نعومتها. تابعت نشر القضيب متصبباً عرقاً. سترت مارسيل بقميص أعلى وركيها المالسين، الهابطين بشراسة على طيز مكوّرة وفرج تبدَّى من الشق الذي فرّجه وقوفها مستندة بإحدى قدميها إلى حافة الكرسي. لم ترتد بنطالاً؛ بل لفت بطنها بتنورة صوف رمادية ذات ثنيّات وارتدت بلوفر ذا مربعات صغيرة سود وبيض وحمر. ثم انتعلت حذاءً ذا كعب مفلطح وجاءت لتجلس بجانبي. فأمكنني، بذلك، أن أداعب شعرها الأملس الذي تبدو شقرته أشبه بالشحوب. فراحت تنظر إليّ ممددة كأنها شديدة التأثر بغبطتي الصامتة.



ـ سوف نتزوج، أليس كذلك؟ قالت أخيراً. الأمور هنا سيئة، والعذاب...

وفي تلك اللحظة لم يكن ممكناً، ولو لثوانٍ أن يخطر لي بأن لا أكرّس بقية أيامي لرؤيا خرافية مثل تلك، قبّلتها طويلاً بجبينها وعينيها. وإذ أرخت إحدى يديها، عفواً، على فخذي، لبثت تتفرّس في وجهي بعينين شاخصتين، ولكن قبل أن تسحبها داعبتني بيد ساهية من خلال الشرشف.

بعد جهد جهيد تمكنت من قطع قضيب النافذة اللعين. لويته بكل قواي مفسحاً حيّزاً لابأس به للعبور من خلال القضبان. وبالفعل عبرت، وعاونتها على النزول بيدٍ دسستها بين فخذيها العاريين. وحالما وطئت أقدامنا الأرض عانقتني وقبّلتني بفمي. أما سيمون الراكعة عند قدمينا الدامعة العينين، فاحتضنت ساقيها مقبّلة فخذيها اللذين اكتفت في البداية أن تلامسهما بخدها، ولكنها، إذ غلبتها رعشة اللذة، فرّقت ما بينهما وألصقت شفتيها على شفري حرها ومصّته بشبق.

انتبهنا أنا وسيمون إلى أن مارسيل لا تعي حقيقة ما يجري. كانت تبتسم إذ تتراءى لها دهشة المشرف على «القصر المسكون» عندما يراها بصحبة زوجها. ولم تكن مدركة حقاً وجود سيمون التي تحسبها أحياناً، وقد غلبها الضحك، ذئباً بسبب شعرها الأسود وضمتها وبسبب رأسها المتطامن على فخذها كرأس كلب. ومع ذلك فعندما كنت أحدثها عن «القصر المسكون» كانت لا تشك لحظة واحدة في أنه المكان الذي احتجزت فيه. ولمجرد ذكره يستبدُّ بها الهلع فتجفل مني كأن شبحاً تراءى لها في الظلام. وكنت إذ ذاك أرمقها بنظرات توجس، وتفاقم قسماتي التي طالما بدت



صارمة من خوفها مني. فتسألني في اللحظة ذاتها تقريباً إذ كنت سأحميها حين يعود الكاردينال.

كنا مستلقين في ضوء القمر عند أطراف مرجة، طلباً لقسط من الراحة في منتصف طريق عودتنا، ورغبة منا في تملّي مارسيل وتقبيلها.

ـ من يكون هذا الكاردينال؟ سألت سيمون.

ـ ذاك الذي حبسني في الخزانة، قالت مارسيل.

ـ ولم الكاردينال؟ صحت قائلاً.

فأجابت على الفور:

ـ لأنه كاهن المقصلة.

وعدت بذاكرتي إلى الخوف الذي انتابها عندما فتحت الخزانة؛ كنت معتمراً بقلنسوة فريجية حمراء هي من بقايا زينة كوتيّون؛ وكنت إلى ذلك ملطخاً بدم نزف من جروح فتاة ضاجعتها.

وهكذا فإن صورة «الكاردينال كاهن المقصلة» تختلط في هلع مارسيل بصورة الجلاّد الملطّخ بالدماء والمعتمر بقلنسوة فريجية؛ تقاطع غريب بين ورع الكهنة وفظاعتهم يفسر مثل هذا الخلط الذي يبقى، في نظري، مرتبطاً بقسوتي التي لا أنكرها وبالقلق الذي دائماً تثيره عندي حتمية أفعالي.



عينا الميّتة الشاخصتان

لبثت لبعض الوقت حائراً إثر اكتشافي هذا. سيمون، هي أيضاً، كانت حائرة. ومارسيل شبه نائمة بين ذراعي. لم نكن ندري ما العمل. كانت تنورتها حاسرة عن شعرتها بين الأشرطة الحمر عند ملتقى فخذيها الرشيقتين. عري صامت، ساكن، يثير فينا نحواً من الوجد: كأن نفحة ما أحالتنا إلى نور. لا نحرّك ساكناً. ورجاؤنا أن يدوم هذا السكون وأن تغرق مارسيل في سباتٍ عميق.

كانت فتنة لدنية تنهك قواي ولا أدري أي مجرى كانت ستسلكه الأمور لو أن سيمون لم تبد مستثارة قليلاً؛ وفرّقت ما بين فخذيها، فرّجتهما بقدر مستطاعها وقالت لي بصوت أبح أنها ما عادت قادرة على تمالك نفسها؛ وبللت ثوبها مرتعشة؛ وفي الوقت نفسه تدفق المني في سرولتي.

استلقيت عندئذٍ على العشب، متوسداً حجراً مسطحاً، شاخص العينين في المجرَّة، تلك الفجوة الغريبة، فجوة المني الفلكي والبول السماوي خلل القبة الجمجمية للكوكبات: ذلك الشق الفاغر عند قمة السماء، والمكوّن، على ما يبدو، من أبخرة النشادر وقد



أصبحت لامعة في الاتساع الهائل ـ في الفضاء الشاغر حيث تتمزّق مثل صياح ديك في هدأة الصمت ـ بيضة، عيناً مفقوءة، أو جمجمتي المفتونة الملتصقة بالحجر، فتعكس صوره المتوازية إلى ما لا نهاية. كان صياح الديك العبثي يتطابق، منفراً، مع حياتي: أقصد الآن في صورة الكاردينال، بسبب الشق، واللون الأحمر، والصرخات المتنافرة التي أثارها في الخزانة، وكذلك الأمر لأن الديوك تتعرّض للذبح...

في أعين آخرين يبدو الكون مستقيماً. يتراءى مستقيماً للناس المستقيمين لأن عيونهم مخصيّة. ولهذا السبب يخشون الإباحة. إنهم لا يبدون أي قلق إذا سمعوا صياح الديك أو إذا اكتشفوا السماء المنجمة ويمكن القول إجمالاً أنهم قد يتذوقون «ملذات الجسد» شريطة أن تكون باهتة.

ولكن، إذ ذاك يزول كل شك: لأني كنت لا أحب ما يسمى بـ «ملذات الجسد» حتماً لأنها باهتة. كنت أعشق ما يعتبر «وسخا»؛ وما كنت البتة لأكتفي على العكس من ذلك، بالفجور المعتاد لأنه لا يدنِّس إلا الفجور، ولا يمسُّ، بأية حال، جوهراً متعالياً كليّ النقاء. فالفجور الذي خبرته وما زلت لا يدنِّس جسدي وأفكاري وحسب، بل يدنِّس أيضاً كل ما أتخيله حياله وخصوصاً الكون المنجّم...

أنسِّب القمر إلى دم الأمهات، إلى طمثهم ذي الرائحة الحريفة.

أحببت مارسيل دون أن أبكيها، وإذا ماتت فبسببي. وإذا أرّقت الكوابيس نومي، وإذا راق لي أن أحبس نفسي، لساعات، في قبو لأنني أفكر بمارسيل، فإني مستعد لأن أعيد الكرة؛ مثلاً أن أغطس شعرها، ورأسها إلى الأسفل، في حوض المراحيض. غير أنها ماتت



وأقصر عيشي على الأحداث التي تقرّبني منها حين لا يكون ذلك متوقعاً.. وإلاّ استحال عليّ أن أدرك صلة ما بين الميّتة وبيني، ما يحيل معظم نهاراتي إلى ضجر لا فكاك منه.

سأكتفي الآن بأن أسرد على مسامعكم كيف شنقت مارسيل نفسها: تعرّفت على الخزانة النورماندية فاصطكت أسنانها. وأدركت، وهي تحدّق بي، أنني الكاردينال. راحت تصرخ مولولة، وكانت الوسيلة الوحيدة لإسكاتها هي أن نتركها هناك، وحدها. لما عدنا إلى الغرفة كانت قد شنقت نفسها داخل الخزانة.

قطعت الحبل، لكنها كانت ميتة. مدّدناها على السجادة. رأتني سيمون منتصباً فخضّت قضيبي حتى انتشيت. استلقينا سوية الأرض وضاجعتها بجنب الجثة. كانت سيمون عذراء فتوجّعنا ولكننا سررنا بوجعنا. وعندما نهضت سيمون ونظرت إلى الجثة، بدت مارسيل غريبة في عينيها، وسيمون، نفسها، بدت غريبة في عينيّ. لم أكن أحب لا سيمون ولا مارسيل ولو قيل لي أنني، أنا نفسي، قد متّ لما فاجأني الأمر. كانت تلك الأحداث مستغلقة علي، لا أفهمها. كنت أراقب سيمون، وما استهواني، أذكر ذلك بدقة، هو أنها بدأت تسيء التصرّف. لقد أثارت الجثّة حنقها. فهي لا تقوى على تحمّل الفكرة؛ فكرة أن هذا الكائن الذي حُيِيَ بشكل مثل شكلها ما عاد قادراً على تحسّسها. والعينان، على نحو خاص، ففي شخوصهما ما يُقبضها. بالت على الوجه الساكن وفوجئت بأن العينين لم تغمضا. نحن الثلاثة، هادئين، ولعل هذا ما أشاع القنوط بيننا. كل تصوّر للضجر يرتبط، في ذهني، بتلك اللحظة وبالعائق الفكاهي الذي هو الموت. غير أن ذلك لم يحل دون أن أفكر في الأمر بلا نقمة لا بل بشعور ما بالتواطؤ. فالحقيقة



أن غياب النشوة جعل الأمور مجرّد عبث، ومارسيل الميّتة لم تكن بالنسبة لي، أبعد منها حيّة نظراً لاقتناعي بأن الكائن العبثي له الحقوق كافة.

أن تعمد سيمون إلى التبوّل عليها ضجراً، أو حنقاً، لهو أمر يدلّ على عجزنا التام عن فهم الموت واستغلاقه علينا. كانت سيمون حانقة، قلقة، غير أن الموقف لم يحملها، مطلقاً، على إظهار بعض الاحترام. لقد بلغ امتلاكنا مارسيل في عزلتنا حداً أعمانا عن رؤيتها ميّتة شأنها شأن آخرين. لم تكن مارسيل قابلة لأن تقاس بمعايير الآخرين. ذلك أن النزوات المتعاكسة التي استبدت بنا ذلك اليوم أبطلت ذاتها بذاتها وخلّفتنا أعميين.

لقد أودت بنا بعيداً جداً وأسكنتنا عالماً حيث الإيماءات بلا معنى. مثل أصوات في حيّز غير صائت، في حيّز لا يسري الصوت فيه.



حيوانات إباحية

اجتناباً لمضايقات أي تحقيق، قررنا أن نسافر إلى اسبانيا، وكانت سيمون تعوّل على معونة أحد الأثرياء الإنكليز الذي اقترح عليها ذات يوم أن يختطفها ويعيلها.

غادرنا الدارة تحت جنح الليل. ولم نجد مشقة في الاستيلاء على زورق ثم بلوغ منطقة مقفرة من الساحل الإسباني.

تركتني سيمون متوارياً وسط غابة وقصدت سان سيباستيان. ثم عادت عند هبوط الليل في سيارة كانت تقودها بنفسها.

أخبرتني سيمون أننا سنلتقي السير أدموند في مدريد، وأنه استجوبها طيلة النهار حول موت مارسيل طارحاً عليها الأسئلة عن أدقّ التفاصيل، طالباً منها أن توضح كلامها بخطط ورسومات. وفي آخر الأمر، أوفد أحد خدمه لشراء مانوكان وباروكة شقراء. وكان على سيمون أن تبول على وجه المانوكان التي مدّدت سوية الأرض شاخصة العينين في مثل الوضع الذي كانت عليه مارسيل. ولم يمسّ السير أدموند الفتاة.

إثر انتحار مارسيل تغيّرت سيمون كلياً. أصبحت عيناها



زائغتين، ساهمتين، كأنها وفدت للتوّ من عالم آخر. وبدا أن كل شيء يضجرها؛ ولم يبقها على صلة بهذه الحياة سوى نشوات نادرة، لكنها أعنف من نشواتها السابقة. وكانت نشوات مختلفة عن نشواتها المعتادة تماماً بمقدار ما تختلف ضحكة المتوحشين، مثلاً، عن ضحكة سواهم من المتمدنين.

في البداية، كانت سيمون تفتح عينين سئمتين على مشهد إباحي وكئيب...

ذات يوم، عمد السير ادموند إلى احتجاز فتاة ليل مدريدية، شابة ومثيرة، في زريبة خنازير منخفضة وضيقة وبلا نوافذ. ارتمت الفتاة عارية إلاّ من صدار شفاف وسرولة، في مستنقع ماء المزابل هذا، تحت أثداء إناث الخنازير. أمام هذا المشهد ضاجعت سيمون طويلاً في الوحل أمام الباب فيما راح السير ادموند يغمز ذكره ويخضه حتى النشوة.

أجفلت الفتاة شاخرة، وفرّت مني، ثم أمسكت فرجها براحتيها ضاربة الأرض برأسها المنقلب بقوة، إلى الخلف. استقلت على هذا النحو بضع ثوانٍ حابسة الأنفاس؛ يداها تشدّان بقوة على فرجها الذي تفتحه بأظافرها، شقّت لحمها بحركة من يدها وراحت تتقلّب على الأرض كطير مذبوح، ممزقة جسمها بشعاب الباب الناتئة. أعطاها السير ادمون معصمه لتعضه، فتطاولت رعشتها الراعفة وقد غطى الريق والدم وجهها.

كانت تأتي دائماً بعد ثورات المبنى هذه للارتماء في أحضاني، فرجها في راحتي الغليظتين؛ وتبقى على هذا النحو بلا حراك، صامتة مثل طفلة، لكنها كئيبة.

برغم هذه الفواصل الإباحية التي كان السير إدموند يبذل



مستطاعه لكي يوفرها لنا، كانت سيمون تفضل مصارعة الثيران. كانت تأسرها لحظات ثلاث في سياق العرض: الأولى، حين يدلف الثور مسرعاً من زريبته كجرذ هائل الحجم؛ والثانية، حين ينغرز قرناه حتى أصلهما في ورك فرس ما؛ والثالثة، عندما تعدو الفرس الحمقاء في أرجاء الحلبة رافسة من دون طائل، دالقة بين قوائمها حزمة من الأحشاء ذات الألوان البشعة، بيضاء وردية ورمادية قاتمة. وعندما تستفرغ مثانتها، وهي في النزع الأخير، دفقاً من بول الفرس ويرتعش خطمها.

تبقى في أقصى الحلبة إلى أقصاها مقيمة على قلقها البادي، فزعاً، من أن ترى نطح قرون الثور المهتاج، الغاضب من مقارعة فراغ المناديل الملونة، يصيب المصارع ويرديه في الهواء، إذ ينبغي القول أن الدابة المخيفة في خطراتها المتواصلة تحت المشمل، قاب قوسين أو أدنى من جسد المصارع، إنما تذكّر، تكراراً، بلعبة الهزّ والرهز في المضاجعة. والقرب من الموت فيها هو نفسه. ومثل هذه المتواليات من العبور المتجانب نادر ويستثير في أوساط المتفرّجين حماسة أشبه بالهذيان، وتنتشي النساء. في تلك اللحظات المؤثرة، لشدة ما تتصلّب عضلات الفخذين والفرج.

من حكايات مصارعة الثيران، روى السير إدموند ذات يوم، على مسامع سيمون، أن من عادة فحول إسبان، من مصارعي الثيران الهواة؛ وهي عادة درجوا عليها حتى وقت قريب، أن يطلبوا من حاجب الحلبة أن يحضر لهم خصيتي الثور الأول مشويتين. وكانوا في العادة، يجلسون في الصف الأول، فيلتهمونها وهم يتفرجون على موت الثور الثاني. أصغت سيمون باهتمام بالغ إلى حكاية السير إدموند، وبما أننا كنا سنذهب، يوم الأحد التالي،



لمشاهدة افتتاح موسم الكوريدا، طلبت منه خصيتي الثور. ولكنها اشترطت أن تكونا نيّتين.

ـ ولكن ماذا ستصنعين بخصيتين نيّئتين؟ سألها السير إدموند. أتأكلينهما نيئتين؟

ـ أريدهما أمامي، على طبق، قالت.



عين غرانيرو

أعلن عن عروض لمصارعة الثيران سيجريها بمدريد لاروزا، ولالاندا وغرانيرو في ٧ أيار/مايو ١٩٢٢. كان بلمونته أفضل مصارعي المكسيك، ولالاندا وغيرانيرو أكبر مصارعي اسبانيا. وإجمالاً، يعتبر غرانيرو أفضل هذين الإثنين. شاب في العشرين، طويل القامة، يتمتع برشاقة طفولية، وله جمهور واسع من المعجبين. كانت سيمون شديدة الإعجاب به ولما أخبرها السير إدموند أن قاتل الثيران الشهير سيتناول طعام العشاء إلى طاولتنا عشية العرض، شعرت بفرح عظيم.

كان غرانيرو يختلف عن مصارعي الثيران الآخرين فلا يبدو في مظهر جزار بل في مظهر أمير فاتن، بادي الرجولة، أهيف الجسم. فطقم الماتادور، بهذا المعنى، يبرز تلك القامة الفارعة المنتصبة مثل انبثاق أفقي، كلما خطر ثور لصق جسده (فيبرز البنطال استدارة عجيزته). إن القماش الأحمر الفاقع، والسيف اللامع تحت أشعة الشمس، بإزاء الثور المحتضر الذي تتصاعد الأبخرة من جلده المكسو بالعرق والدم هي تفاصيل تستكمل سياق التحوّل وتظهر



الجانب الفاتن من اللعبة. وكل هذا يجري تحت سماء اسبانيا الملتهبة والتي ليست، كما يخيل للبعض، زاهية قاسية، بل متحمسة بسطوع باهر ـ رخو ومعتكر ـ غير واقعي أحياناً لشدة ما يستثير سطوع الضياء وشدة الحر، طلاقة الحواس، أو الأحرى رطوبة الجسد الرخوة.

أقيم الصلة بين اللاواقعية الرطبة لسطوع الشمس وبين كوريدا السابع من أيار/مايو. الشيئان الوحيدان اللذان احتفظت بهما، بحرص شديد، هما المروحة الصفراء والزرقاء والكتيِّب الشعبي المكرّس لموت غرانيرو، ذات يوم، خلال انتقالنا إلى متن مركب، سقطت الحقيبة التي تحتوي هذين التذكارين في البحر (ثم انتشلها رجل عربي مستعيناً بعصا طويلة)؛ وجدتهما في حالة مزرية، ولكن رغم اتساخهما وانتفاخهما بالماء، بقيا التذكارين اللذين يرتبطان بأرض، وبمكان وبتاريخ لم تعد بالنسبة لي سوى رؤيا ابتلال.

كان الثور الأول الذي منت سيمون نفسها بالحصول على خصيته، مسخاً أسوداً اقتحم الحلبة بما يشبه العاصفة، وبرغم الجهود والصراخ، تمكن من بقر ثلاثة جياد قبل الإعلان عن افتتاح العرض. حتى أنه قذف في إحدى المرات، بحصان وفارسه معاً في الهواء كأنهما أضحيتان مبذولتان للشمس، قبل أن يسقطا خلف الحاجز الخشبي. في اللحظة الحاسمة تقدم غرانيرو: جاذباً الثور إلى مشمله، متلاعباً باهتياجه. ووسط عاصفة من التصفيق والتهليل تمكن الماتادور الشاب من الدوران بالمسخ بحركة من مشمله؛ وكلما استهدفه الثور بنطحة تحاشاه في اللحظة الأخيرة. ثم جاء موت المسخ الشمسي دونما مشقة. هبّت عاصفة التهليل عندما بركت الضحية، بترنّح ثمالة، على الركب الأربع، ثم هوت محشرجة، منتصبة القوائم في الهواء.



سيمون التي وقفت بيننا أنا والسير إدموند ـ وقد أسكرتها الحماسة مثلي ـ رفضت أن تعاود الجلوس بعد موجة التصفيق. أمسكت بيدي دون أن تنبس بكلمة واقتادتني إلى فناء خارجي تسوده روائح البول. أحطت بإليتها بجماع راحتيّ فيما انهمكت بإخراج ذكري بعصبية بالغة. وهكذا دلفنا إلى داخل مراحيض قذرة حيث ذباب ضئيل يغطي نقحة شمس. وإذا عرّيت الفتاة من ملابسها أولجت قضيبي الزهريّ في حيائها الرطب المحتقن دماً؛ أدخلت ذكري في كهف الحب هذا فيما أحكّ، مهتاجاً، أستها بأصابعي: وفي الوقت نفسه يختلط سعار خمنينها.

إن نشوة الثور ليست أعنف من النشوة التي بلغناها مندفعة بين حقوينا، ممزقة قرارة ما في أنفسنا دون أن يرتخي العضو في المهبل المنفرج المغمور بالمني.

خفقات قلبينا في صدرينا ـ الملتهبين الملهوفين لأن يعريا ـ لم يرعو تسارعها. لكننا عدنا إلى أماكننا في الصف الأول، وفي فرج سيمون لذة مقمية، وفي ذكري عناد الانتصاب. وعلى المقعد حيث ينبغي أن تجلس صديقتي وجدنا طبقاً يحتوي خصيتين مسلوختي الجلد؛ كانت الغدّتان اللتان لا يزيد حجمهما عن حجم بيضة وشكلها، بيضاويين صدفيتين، مورّدتين بالدم، أشبه بالمُقلة.

ـ الخصيتان النيّئتان، قال السير إدموند لسيمون بلكنة إنكليزية واضحة.

كانت سيمون قد ركعت أمام الطبق الذي أثار فيها حرجاً لم تشهد مثله من قبل. وبدت حائرة لأنها تعرف جيداً ماذا تريد، ولكنها لاتعرف كيف تتصرف. رفعت الطبق عن المقعد لكي تجلس. لكنها انتزعته من بين يدي ووضعته عليه مجدداً.



كان همُّنا أنا والسير إدموند أن لا نلفت الأنظار إلينا. فالعرض يتطاول في فقراته المملة؛ فانحنيت على أذن سيمون وسألتها عما تريد:

ـ أيها الأحمق، قالت، أريد أن أجلس عارية على الطبق.

ـ مستحيل، قلت، هيا إجلسي.

رفعت الطبق وأرغمتها على الجلوس. وحدجتها بنظرات متفرّسة. أردت أن ترى بأنني فهمت (كنت أفكر بطبق الحليب). ومنذ تلك اللحظة لم نعد قادرين على التريُّث في أماكننا. وتحوّل هذا الشعور بالضيق إلى ما يشبه العدوى أصابت السير أدموند الهادىء في طبعه. كان العرض رديئاً؛ المصارعون مرتبكون والثيران تفتقد الجرأة. ولأن سيمون كانت قد أصرّت على مقاعد مكشوفة أحسسنا بأننا أسرى غمامة من الضياء والقيظ الدبق حتى جفت شفاهنا.

لم تتمكن سيمون، مهما حاولت، من رضع ثوبها والجلوس على الخصيتين؛ لذا أبقت الطبق بين يديها. وأردت أن أضاجعها مجدداً قبل أن يعود غرانيرو. لكنها رفضت، فقد فتنتها مشاهد بطون الجياد المبقورة التي يتبعها، كما تقول، «رشح وجلبة»، أي شلال من الأمعاء (في تلك الحقبة، لم تكن الجياد تحصن بدروع على بطونها).

ومع مرور الوقت، باتت أشعة الشمس تستدرجنا، رويداً، إلى لا واقع يتلاءم وضيقنا، ورغبتنا العاجزة في الانعتاق من أجسادنا، وفي أن نتعرّى. وكنا نتقاسم، منقبضي الوجوه تحت نير الشمس والعطش وسخط الحواس، ذلك الانحلال الكئيب الذي لا تناغم للعناصر فيه. عاد غرانيرو لكن شيئاً لم يتغير؛ الثور يبقى على حذره والعرض يواصل إملاله.



ما أعقب ذلك تم دون مقدمات، وحتى دونما رابط ظاهري، ليس لأن الأمور لم تكن مترابطة، بل لأنني شهدتها ساهياً. لمحت سيمون، في ما يشبه لمح البصر، تعضّ على إحدى المقلتين، وغرانيرو يتقدّم، يلوّح للثور بمشمل أحمر؛ ثم سيمون، مستثارة في لحظة من الثمالة الإباحية، تحسر عن حرّها وتولج فيه الخصية الأخرى. انقذف غرانيرو مرتمياً أسفل الحاجز الخشب، وعلى هذا الحاجز تعاقبت نطحات الثور الثلاث: إحدى النطحات فقأت العين اليمنى واخترقت الرأس؛ علا الهتاف من مدارج الحلبة كأنه يصاحب رعشة سيمون المنتشية. وإذ رفعتها قوة الرعشة عن مقعدها ترنّحت ووقعت أرضاً، وقد أعمى ضياء الشمس عينيها، وسال الدم من منخريها. هرع بعض الرجال وحملوا غرانيرو.

كان الحشد وقوفاً على المدارج، والمقلة اليمنى متدلية من رأس الجثة.




مكتبة
الفكر الجديد

تحت شمس إشبيلية

كرتان متماثلتان بالحجم والشدة بنبضات متعاكسة ومتزامنة. خصية ثور بيضاء ولجت مهبل سيمون «الزهري والأسود». عين اندلقت من رأس فتى. تلك المصادفة المرتبطة في وقت معاً، بالموت وبضرب من الانحلال البولي للسماء جعلتني، للحظة ما، أستعيد ذكرى مارسيل. وتهيأ لي، في تلك اللحظة الهاربة، أنني ألمسها.

مجدداً كان الضجر. رفضت سيمون، لضيق ألمّ بها، أن تبقى في مدريد يوماً إضافياً واحداً. وأصرّت على الانتقال إلى أشبيلية التي اشتهرت بأنها مدينة الملذات.

وأراد السير إدموند أن يستجيب لنزوات «صديقته الملائكية». وفي الجنوب طالعنا ضياء وحرّ أشد ميوعة حتى مما شهدناه في مدريد. فيض من الورود في الشارع يستثير الحواس.

كانت سيمون تتجول عارية تحت غلالة شفيفة يتبدّى من خلالها حرير الحزام وحتى، في بعض حركاتها المفاجئة، شعرة عانتها. وكانت أشياء تلك المدينة كلها متضافرة لتجعل منها فتنة



تلهب الحواس. وغالباً ما كنت ألحظ ذكراً ينتصب مقبباً سروالة العابر بمحاذاتها في الشارع.

لم نتوقف تقريباً عن المضاجعة مجتنبين بلوغ النشوة متنقلين، كسائحين، بين معالم المدينة. نغادر مكاناً مؤآتياً قاصدين آخر: صالة متحف، رواق حديقة، في كنيسة، أو زقاق ضيّق عند المساء. كنت أفرّج شفري صديقتي وأولج قضيبي في مهبلها؛ ثم أسحب قضيبي من مربطه ونعاود التجوال على غير هدى. كان السير ادموند يتبعنا من بعيد ويفاجئنا. فيحتقن وجهه ولا يقترب. وإذا فرك قضيبه منتشياً، مستثاراً، فخلسة ومن بعيد.

ـ هذا مكان مميّز، قال لنا ذات يوم، مشيراً إلى كنيسة. هذه هي كنيسة دون خوان.

ـ حقاً؟ سألت سيمون.

ـ هلا دخلتِ بمفردك إلى الكنيسة، اقترح السير ادموند.

ـ يا لهَا من فكرة.

وسواء كانت الفكرة عبثية أم لا، دخلت سيمون ومكثنا عند الباب ننتظرها.

عندما عادت وقفنا حيالها مذهولين: كانت تضحك متصهصلة فلا تقوى على الكلام. ولعل عدوى الضحك، مصحوبة بوطأة الشمس، انتقلت إليّ فرحتُ، بدوري، أضحك وكذلك السير أدموند.

ـ فتاة غريبة الأطوار! صاح الإنكليزي، هلا شرحت لنا؟ أنضحك فوق ضريح دون خوان؟

ومستغرقاً في الضحك أشار عند أقدامنا إلى لوحة نحاسية



عريضة؛ كانت تغطي ضريح منشىء الكنيسة الذي يقال له أنه دون خوان. فقد أراد هذا الأخير، بعد توبته أن يدفن عند عتبة المدخل لكي تدوسه أقدام الفانين.

أشتدّ ضحكنا حتى غدا هستيرياً. فبالت سيمون على ساقيها: وسال خيط من البول على لوحة القبر.

وكان لهذه الفعلة أثر آخر: إذ التصق قماش الثوب المبلّل بجسمها وبدا من خلاله، فرجها الأسود.

ثم تمالكت سيمون نفسها.

ـ سأدخل لأعالج بللي، قالت.

وإذا بنا في صالة لم نجد فيها ما يبرر صهصلة سيمون؛ أجواؤها أميل إلى الطراوة، ومنوّرة بما يدلف إليها من ضياء من خلل ستائر الكريثون الأحمر. سقفها من الخشب المحفور، وجدرانها بيضاء ولكن مزيّنة بالأنصاب والصور. مذبح وملحقات مذبح مذهبة تتصدّر جدار المؤخر حتى أعمدة الهيكل الخشبي. كان هذا الديكور الخرافي كأنما اختزن كنوز الهند، بزينته وقبابه ومقنطراته، يذكر، بظلاله ولمعان ذهبه، بأسرار جسد معطرة. إلى يمين الباب ويساره لوحتا فالديز ليال الشهيرتان اللتان تصوران جثثاً متحلة: في تجويف عين أحد الأساقفة جرو يسعى إلى الدخول...

إزاء كل هذا، الديكور الشهواني الباذخ، وتلاعب الظلال وإضاءة الستائر الحمراء، الطراوة ورائحة أزاهير الغار، وفحش سيمون، جعلتني أنزل في ثيابي.

رأيت، خارجة ركن الاعتراف، قدمي إحدى المصليات مكسوتين بجوربي حرير.



ـ أريد أن أراهنّ خارجات، قالت سيمون.

جلست أمامي قرب ركن الاعتراف.

أردت أن تمسك قضيبي بيدها، ولكنها رفضت مهددة بأنها إذا فعلت ستخضه حتى ينزل.

فأذعنت جالساً؛ ورأيت شعرتها خلل الحرير المبلل.

ـ سوف ترى، قالت.

بعد انتظار طويل، غادرت كرسي الاعتراف امرأة فاتنة الجمال، مضمومة اليدين شاحبة الوجه، منتشية بوجد غامض: رأسها مرفوع ومائل إلى الخلف، بيضاء العينين، تعبر الصالة متمهلة مثل شبح أوبرا. كززت على أسناني لئلا أضحك. وفي تلك اللحظة فتح بويب ركن الاعتراف.

خرج منه راهب أشقر الشعر فتيّ، رائع الجمال، ذو خدّين ضامرين وعيني قديس كابيتين. لبث مضموم اليدين على عتبة الركن، وعيناه شاخصتان إلى نقطة ما في السقف: كأن رؤيا سماوية ما سترفعه عن الأرض.

كان سيغادر بدوره لولا أن سيمون أستوقفته أمام عيني الذاهلتين. فحيّت صاحب الرؤى وطلبت أن يستمع إلى اعترافاتها...

لم يبدُ على الراهب أي ردّ فعل وأشار، غارقاً في وجده اللدني، إلى الموضع الذي فيه يتم الغفران: فركع تحت ستارة؛ ثم دخل مجدداً إلى ركن الاعتراف وأغلق البويب وراءه.



اعتراف سيمون وقدّاس السير إدموند

وقفت ذاهلاً، وركعت سيمون تحت الستارة. وفيما راحت تهمس بلا توقف، لبثت منتظراً بفارغ الصبر تبعات هذا اللعب الشيطاني. وتخيلت الكائن الورع مندفعاً من ركنه ممسكاً بخناق الكافرة. غير أن هذا لم يحدث؛ وواصلت سيمون، عبر الكوة المشبكة، همسها المتتابع المكتوم.

رحنا أنا والسير ادموند نتبادل نظرات التعجب والاستفهام عندما اتضح الأمر أخيراً. راحت سيمون تداعب فخذها بروية وتفتح فرجها. كانت ترتعش اهتياجاً راكعة على ركبة واحدة. وحسرت ثوبها كلياً وهي تواصل اعترافها. حتى بدا لي أنها تفرك فرجها لبلوغ نشوتها.

دنوت منها على أصابع رجلي.

كانت سيمون تداعب نفسها بالفعل، ملتصقة بالحاجز الخشبي الذي يفصلها عن الراهب، متشنجة الأطراف، منفرجة الفخذين، وتفرك شعرتها بأصابعها. وكان بإمكاني، من حيث وقفت، أن



ألمسها، فدسست كفّي في شق طيزها حتى لامست أصابعي حلقة الإست. وإذا ذاك سمعتها بوضوح وهي تقول:

ـ يا أبتي، لم أعترف بعد بالأدهى.

أعقب قولها صمت.

ـ الأدهى يا أبتي هو أنني، فيما أحادثك، أداعب نفسي لكي أبلغ نشوتي.

هنيهات سادتها هذه المرة وشوشات. ثم بصوت مسموع:

ـ إذا كنت لا تصدّق بإمكاني أن أبرهن لك.

ـ ونهضت سيمون، مفرجة شفري حيائها أمام كوة المحرب مفركة فرجها منتشية برهز خبير وسريع من يدها.

ـ إذا أيها الكاهن، صاحت سيمون وهي تضرب الحاجز بقبضتها الأخرى، ماذا تفعل في محربك؟ هل تستمني أنت أيضاً؟

غير أن جوف المحراب بقي صامتاً.

ـ إذاً سأفتح.

في الداخل كان صاحب الرؤى مطرقاً يمسح بمنديله العرق المتصبب من جبينه. تحسست الفتاة جبّته فلم يحرك ساكناً. رفعت الثوب الخشن الأسود واستلت من ثنياته ذكراً منتصباً زهري اللون: ولم يفعل سوى أنه ألقى برأسه إلى الوراء مكشراً، ناظراً من بين أسنانه. واستسلم لسيمون التي لقمت رأس قضيبه بفمها.

لبثنا أنا والسير ادموند ذاهلين جامدين بلا حراك. سمّرني الإعجاب بما أرى في مكاني. ولم أدر ماذا أفعل وإذا بالإنكليزي الغامض يقترب. وأبعد سيمون برفق؛ ثم ممسكاً بمعصم اليسروع المترحمين أخرجه من حجره ومدّوه سوية البلاط عند أقدامنا: كان



الكائن الدنيء هامداً وفمه مزبداً على الأرض. فتعاونا أنا والإنكليزي على حمله إلى داخل السكرستيا.

حاسراً عن ذكره المرتخي، ممتقع الوجه، لم يبد الراهب أية مقاومة بل كان تنفسّه ثقيلاً؛ أجلسناه على الأريكة ذات الشكل الهندسي.

ـ أيها السادة، قال البائس، لا بدّ أنكم تعتقدون بأني منافق!

ـ لا، أجابه السير ادموند بنبرة حاسمة.

سألته سيمون:

ـ ما أسمك؟

ـ دون أمينادو، قال.

عندئذٍ صفعت سيمون الجيفة الكهنوتية، فانتصب ذكر الجيفة مجدداً. عريّت من ثيابها وقرفصت سيمون فوق كومة الثياب الملقاة على الأرض. وبالت عليها كما تفعل كلبة. ثم عمدت إلى خض قضيب الراهب ومصه. ونكت سيمون باستها.

كان السير ادموند يراقب المشهد بوجه محتقن. وتفحص بناظريه الصالة التي لذنابها، فرأى مفتاحاً متدلياً من مسمار مثبت في الحائط.

ـ ما هذا المفتاح؟ سأل دون أمينادو.

وأدرك لما اعتور وجه الكاهن من قلق، إنه مفتاح بيت القربان.

لم تمضِ سوى لحظات عاد إثرها الإنكليزي حاملاً حقة قربان مزركشة بنقوش ملائكة صغار عراة.

كان دون أمينادو يحدّق بثبات بوعاء الله هذا الذي وضع على



الأرض؛ بدا وجهه الجميل الأبله ذاهلاً تعضّه أحياناً عضعضات سيمون التي بها تستثير ذكره قياماً.

بعد أن أوصد الإنكليزي الباب ودعّمه بما تيسر، راح يفتش الخزائن فوجد كأساً كبيرة. ورجانا أن ندع البائس وشأنه لبعض الوقت.

ـ أترين، قال مخاطباً سيمون، ذاك القربان في حقّته وهذا الكأس الذي يسكب فيه النبيذ.

ـ تفوح منه رائحة المني، قالت وهي تتشمم قطع الخبز غير المختمر.

ـ تماماً، أردف الإنكليزي قائلاً، هذا القربان هو مني المسيح على هيئة قطع صغيرة من الكعك. أما النبيذ فيقول الرهبان أنه دم. لكنهم يخدعوننا. فلو كان حقاً دماً لشربوا نبيذاً أحمر؛ سوى أنهم يشربون نبيذاً أبيض لعلمهم بأنه بول.

بدا برهانه مقنعاً. استولت سيمون على الكأس وحملت أنا الحقة: رعدة خفيفة سرت في بدن الدون أمينادو.

ضربته سيمون بقوة على رأسه بكعب الكأس، فأجفل قبل أن يغمى عليه. ومصّت قضيبه مجدداً، فراح ينخر ويشخر كالمحموم. بلغت به ذروة اهتياج الحواس ثم قالت:

ـ هذا ليس كل شيء، يجب أن تبوّل.

وصفعته مجدداً على الوجه.

تعرّت أمامه ورحت ألعب بفرجها.

كانت نظرات الإنكليزي صارمة، شاخصة بعيني الأبله،



فجرت الأمور دونما مشقة. ملأ دون أمينادو ببوله المتدفق الكأس الذي حملته سيمون تحت قضيبه.

ـ والآن، إشرب، قال السير ادموند.

وشرب البائس بنشوة عارمة.

ومصت سيمون قضيبه مجدداً، وراح يصرخ كالمفجوع من اللذة. وبحركة شيطانية قذف المبولة المقدسة فاصطدمت بالحائط مصدعة. وإذ أمسكت به أربعة سواعد مفرجة ساقيه طاوية جسمه وناخراً مثل خنزير، أنزل منيه على القربان وقد وضعت سيمون الحلقة تحت ذكره وهي تخصه.




مكتبة
الفكر الجديد

قوائم ذباب

أرخينا الجيفة من بين أيدينا فسقطت على البلاط خبطاً. كنا مستثارين بعزم واضح ومصحوب بكثير من النشوة. كان الكاهن وقد زال انتصابه منبطحاً سوية الأرض كأنه يعض عليها بأسنانه لشدة عاره، فرغت خصيتاه وتقبضت أوتار بدنه لهول جريمته. وسمعناه يئن شاكياً:

- يا لبؤس هذا الدنس...

وشكاوى أخرى لم نفهمها.

ركله السير ادموند برجله؛ فأجفل المسخ وصاح حنقاً. كان مظهره مضحكاً فضحكنا ملء أشداقنا.

- انهض، قال السير ادموند بنبرة آمرة، سوف تضاجع الفتاة.

- أيها الأشقياء، صاح الكاهن متوعداً بصوته المخنوق، العدالة الإسبانية... السجن... المقصلة...

- لقد نسي أنه مينة، لاحظ السير ادموند.

تكشيرة ثم خوار حيوان، ثم:



... المقصلة... لي أنا أيضاً... ولكن لكم أنتم أولاً...

ـ أيها الأحمق، أجاب الإنكليزي ساخراً، أولاًّ؟! أتظن أن هناك «بعد»؟

حدّق الأبله بالسير ادموند؛ كأن وجهه الوسيم لا ينضح إلا بسيماء البلاهة. غبطة غريبة جعلت فمه فاغراً؛ رفع يديه مضمومتين وشخص إلى السماء بنظرات منتشية. وتمتم عندئذٍ بصوت خفيض متلاشٍ:

ـ ... الشهادة...

راود البائس رجاء خلاص، وبدت عيناه ملهمتين.

ـ أولاً، سأقص عليك حكاية، قال السير ادموند، أنت تعلم أن الذين يموتون شنقاً أو بالمقصلة، ينتعظون بشدة لحظة اختناقهم وينزلون. ستكون إذاً شهيداً ولكن بالمضاجعة.

انتفض الكاهن مذعوراً وحاول أن ينهض، لكن الإنكليزي عاجله بليٍّ ذراعه فرماه أرضاً.

لوى السير ادموند ذراعيه إلى الخلف، وكممت فمه بخرقة بعد أن أوثقت ساقيه بحزامي. ثبّت الإنكليزي ، وقد استلقى بدوره على الأرض، ذراعي الكاهن بيديه، كما ثبت ساقيه بساقيه المضمومتين حولهما. أما أنا فركعت فوقه وأبقيت رأسه مثبتاً بين فخذي.

قال الإنكليزي لسيمون:

ـ والآن امتطي جرن الكنيسة هذا.

شمّرت سيمون ثوبها وجلست على بطن الشهيد، فرجها بمحاذاة ذكره الرخو.



تابع الإنكليزي كلامه من تحت جسد الضحية:

ـ والآن شدّي على خناقه تحت جوزة العنق بالضبط: شدّي بقوة وزيدي الضغط تدريجياً.

شدّت سيمون: سرت رعدة تشنج في ذلك الجسد المقيّد، وانتصب الذكر. أمسكته بيدي وأولجته في فرج سيمون، تابعت الضغط على العنق.

وبعنف راحت الفتاة تغمز فرجها، سكرى، حابسة القضيب المنتصب طيّ مهبلها. فتصلّب جسد الكاهن.

ثم شدّت بقوة حتى ارتعد جسم المائت برعشة عنيفة: وأحسّت بالمني يغمر فرجها. فترجّلت عنه، منهوكة، مرتعشة بنشوة غامرة.

لبثت سيمون على البلاط، عارية البطن، ومني الميت يقطر من شفري حيائها. استلقيت لأضاجعها بدوري. كنت مشلولاً؛ كأن قواي قد استنفدت بهذا العشق المفرط وبموت الكاهن البائس. لم أشعر من قبل بمثل تلك الغبطة. فاكتفيت بأن أقبل سيمون بفمها.

أرادت الفتاة أن ترى صنيعها وأبعدتني عنها لكي تنهض. فامتطت الجثة العارية مجدداً، متفرّسة في الوجه ماسحة العرق عن الجبين. ذبابة تئز سابحة في فتحة شمس تغطّ فوق الميت ثم تطير. ذبّتها بيدها وصاحت بغتة. فقد رأت مشهداً غريباً: الذبابة تحط على عين الميت، وتنقل على مهل فوق مقلتها اللامعة. راحت سيمون تهز رأسها بعنف وقد صمّت أذنيها بكفيّها؛ ثم غرقت في هوّة من الأفكار.

مهما بدا الأمر، فلا حيلة لنا بما حصل. لو جاء بعض الفضوليين إلى حيث كنا لما استرسلنا بفعلتنا إلى النهاية... ولكن لابأس. حين انتبهت سيمون من سهوها، نهضت وانضمّت إلى السير ادموند



الذي جلس مستنداً إلى حائط. كان طنين الذبابة مازال مسموعاً.

ـ سير ادموند، قالت سيمون واضعة خدّها على كتفه. هل تفعل ما أريد؟

ـ أفعل... على الأرجح، قال الإنكليزي.

اقتادتني إلى جنب الميت، وراكعة، فتحت الجفنين المطبقين على العين التي دبّت عليها الذبابة.

ـ أترى العين؟

ـ وبعد؟

ـ إنها بيضة، قالت ببساطة مفرطة.

قلت ملحاحاً بشيء من الاضطراب:

ـ إلى ماذا ترمين؟

ـ أريد أن ألهو بها.

ـ أجننت؟

بدت حاصرة عندما نهضت، فبدا عريها أشدّ عرياً؟

ـ اسمع يا سير ادموند، قالت، يجب أن تعطيني العين على الفور، هيا اقتلعها.

لم يتردد السير ادموند، بل أخرج من محفظته مقصاً، وبرك أمام الميت على ركبتيه وراح يقص الجلد ثم دسّ أصابعه في تجويف العين وانتزع المقلة وانكبّ على قطع الأوتار العالقة بها. ووضع الكرة البيضاء الصغيرة في يد صديقتي.

رمقت الفظاعة بشيء من الضيق، لكنها لم تتردد لحظة واحدة. وراحت تداعب فخذيها مزلقة العين عليها. كان ملمس العين على البشرة ناعماً... وفيه سمة مرعبة من صياح الديك.



ومع ذلك كانت سيمون مسترسلة بلهوها، تمرّغ العين في شق طيزها. ثم تمددت ورفعت ساقيها وفرجها. حاولت أن تثبت الكرة بضمّها إليتها، لكنها سرعان ما انزلقت ـ مثل نواة بين الأصابع ـ وسقطت على بطن الميت.

جرّدني الإنكليزي من ملابسي.

ارتميت على الفتاة وابتلع فرجها قضيبي. كنت أسرع الرهز منتشياً: فدحرج الإنكليزي العين بين جسدينا.

ـ دسّها في استي... صاحت قائلة.

وضع السيد ادموند العين عند حلقة الإست وضغطها.

آخر الأمر، تركتني سيمون وأخذت العين من يد السيد ادموند وأدخلتها في فرجها. وجذبتني إليها عندئذٍ وقبّلتني بشبق مولجة لسانها في فمي حتى أنزلت: فتدفق مائي على شعرتها.

حالما نهضت فرقت ما بين فخذي سيمون: كانت مستلقية على جنبها؛ فوجدتني حيال ـ ما أحسب ـ أنني انتظرته منذ زمن بعيد ـ كمثل ما تنتظر المقصلة الرأس الذي ستقطعه. كانت عيناي، كما خيّل إليّ، قابلتين للانتصاب لشدة الهول؛ ورأيت، في فرج سيمون الأشقر عين مرسيل الزرقاء الشاحبة تحدق بي وتذرف دموعاً من بول. وجاءت قطرات المني الساخن طي الشعرة ليكسب هذه الرؤيا مسحة من الحزن المؤلم، أبقيت على فخذي سيمون منفرجتين كان البول الحارق يتدفق تحت العين على الفخذ الآخر...

متنكرين، أنا والسير ادموند بلحيتين سوداوين، وسيمون بقبعة مضحكة من الحديد الأسود المزركش بورود صفراء، غادرنا إشبيلية في سيارة أجرة. وبدلّنا تنكرنا عند مدخل مدينة أخرى. اجتزنا «روندا» متنكرين بأثواب كهنة إسبان، معتمرين قبعات من القطنية



السوداء، معلقين بمشاملنا ومدخنين أنواعاً من السيكار الضخم؛ وسيمون بثوب راهبة يضفي عليها طلعة ملائكية لا توصف.

هكذا تنقلنا متخفين في أرجاء الأندلس، تلك البلاد الصفراء أرضاً وسماءً، آناء الليل اللامتناهي المغمور بالضياء، حيث كل يوم تتلبّس سيمون شخصية جديدة فاغتصبها، عند الظهيرة، على الأرض، وتحت الشمس المتعامدة، أمام عيني السير ادموند المحتقنتين.

في اليوم الرابع، اشترى الإنكليزي يختاً في مضيق جبل طارق.



ذكريات غائمة

مقلباً، ذات يوم، صفحات مجلّة أميركية استوقفتني صورتان. الأولى هي صورة شارع في بلدة نائية تحدّرت منها أسرتي. والثانية، صورة خرائب قلعة مجاورة. لتلك الخرائب الجاثمة فوق صخرة عند قمة جبل، صلة بحقبة من حقب حياتي. كنت في الحادية والعشرين، وكنت أقضي فصل الصيف في دارة أسرتي. وخطر لي ذات يوم أن أمضي ليلتي بين هذه الخرائب. فقصدتها مصحوباً بأمي وبضع فتيات محتشمات (كنت مغرماً بإحداهن التي تبادلني الحب، دون أن نأتي على ذكر الموضوع ألبتة: فقد كانت تقية منصرفة لذكر الله خشية أن يستدعيها في أية لحظة). كانت الظلمة في تلك الليلة حالكة. ووصلنا بعد مسيرة ساعة. وكنا نجتاز المساحة الوعرة أسفل أسوار القلعة عندما طلع علينا شبح أبيض مشعّ من أحد الصدوع الصخرية وقطع علينا الطريق. أغمي على أمي وإحدى الفتيات. أما الأخريات فرحن يصرخن. برغم يقيني أن الأمر مجرد دعابة، أحسست بذعر شديد. لكنني مشيت باتجاه الشبح طالباً منه، بغصة الخوف، أن يكفّ عن مزاحه، تلاشى



الشبح: ولمحت خيال أخي الأكبر هارباً وقد اتفق مع صديق له أن يسبقنا على الدرّاجة إلى هذا المكان وأن يخيفنا ملتحفاً بشرشف أبيض معرّض لضوء مصباح مخبأ: كان المكان ملائماً لمثل هذه المسرحية، كما كان الإخراج ممتازاً.

في اليوم الذي جلست فيه أقلب صفحات المجلة كنت قد أنهيت، لتوي، تأليف الفصل المتعلّق بالشرشف. تراءى لي الشرشف إلى جهة اليسار تماماً كما ظهر لي الشبح إلى يسار القلعة. كانت الصورتان متطابقتين.

ولكن المفاجئة التالية كانت أشد وقعاً.

كنت تخيلت، منذ ذلك الحين، وبأدق تفاصيله، مشهد الكنيسة، خصوصاً مشهد اقتلاع العين. ومتنبهاً إلى صلة ما بين المشهد بحياتي الواقعية، عملت على ربطه بوصف لأحد عروض مصارعة الثيران الشهيرة، التي شاهدتها بالفعل - ذاكراً الأسماء والتواريخ الحقة، وتردد ذكرها مراراً في أحد كتب همنغواي - وللوهلة الأولى غاب عني أي شبه بينها، ولكنني حين رويت تفاصيل موت غرانيرو وقعت في حيرة وتشوش. فاقتلاع العين لم يكن اختراعاً محضاً بل هو تحوير لواقعة شهدتها بأم العين وحصلت لرجل من لحم ودم (إثر الحادث القاتل الوحيد الذي شهدته في حياتي). وهكذا انبثقت صورتان، هما الأكثر بروزاً، من ذاكرتي التي حفظت أثرهما وأحيتهما على هيئة مختلفة ما أن سعيت وراء القدر الأكبر من الإباحة.

أما الشبه الثاني فتنبّهت إليه فور انتهائي من كتابة وصف «الكوريدا»: وقرأت على أحد الأطباء من بين أصدقائي صيغة مختلفة عن الصيغة الواردة في الكتاب. إذ لم أكن قد شاهدت من



قبل خصية ثور مسلوخة، وحسبت أنها لابدّ أن تكون حمراء بلون الدم. ولذلك بدا لي أن أي شبه بينها وبين العين والبيضة سيكون مفتعلاً. فأظهر لي صديقي غلطتي. وفتحنا مصنفاً في علم التشريح حيث رأيت أن خصية الحيوان والإنسان ذات شكل بيضوي وأن لونها يشبه لون المقلة.

وثمة ذكريات أخرى، من نوع آخر، تتصل بصور من هواجسي.

لقد ولدت من أب مُسَفْلَس (مسهوم)، لم يلبث أن أصيب بالعمى (كان أعمى حين حبلت بي أمي)، وعندما بلغت الثانية أو الثالثة من عمري أصابه هذا المرض بالشلل. وكنت في طفولتي، أعشق هذا الأب. والحال أن ما يترتب علي الشلل والعمى من بين أمور أخرى، أنه كان عاجزاً عن الذهاب إلى المرحاض ليتبول. وكان يفعل جالساً، وتحته وعاء. كان يبول أمام ناظري لأنه لا يحسن، لعماه، وضع الغطاء الساتر كما ينبغي. والأكثر حرجاً في تعاطينا معه كانت طريقته في التحديق بالأشياء. كان بؤبؤه لعماه التام، يختفي، في الليل، أعلى المقلة تحت باطن الجفن؛ وكان هذا يحدث عادة في أوقات الحقن بالعقاقير. كان أبي ذا عينين واسعتين مبحلقتين، في وجه نحيل على هيئة منقار نسر. وكان إذا بال استحالتا إلى بياض تام، فتبدوان عندئذٍ زائغتين، ساهمتين. لم يكن أمامهما سوى عالم لا يراه أحد سواه ويوحي له بتلك الضحكة الغائبة. والحال إن عينيه البيضاوين هاتين هما اللتان أوحيتا بحديثي عن البيض؛ وعندما يرد، في سياق السرد، ذكر العين أو البيض، يرد ذكر البول من تلقائه.

بعد أن لحظت أوجه الشبه هذه، أحسب أني تنبهّت إلى صلة



ما تُرجع جوهر السرد (بمجمله) إلى الحادثة الأشدّ وطأة من صباي.

عند البلوغ، استحالت العاطفة التي كنت أكنّها لأبي إلى مَقْتٍ غير مُدْرَك. إذ ما عاد يحزنني كثيراً صُراخه الممزِّق الذي يسببه له السهام (ويصفه الأطباء بأنه المرض الأشد إيلاماً). وما عادت الروائح المنبعثة منه لعجزه (إذ يحدث أن يتبرّز أثناء تبوّله) لتثير فيَّ أي إشفاق. وفي كل أمر اتخذ موقفاً نقيضاً لموقفه:

ذات الليلة استيقظت أنا وأمي على نبرة خطاب كان العاجز يلقيه بصوت عال، في غرفته: لقد أصيب بجنون مباغت، فهرعت لإحضار الطبيب الذي اصطحبني بسرعة. وبفصاحته المشهودة كان أبي يتخيّل ما يحلو له من الحوادث. ولما اختلى الطبيب بأمي في غرفة مجاورة صاح المعتوه قائلاً:

ـ يا دكتور، متى انتهيت من مضاجعة زوجتي!

وكان يضحك، هذه العبارة التي قوّضت كل تأثير لتربيتي الصارمة، خلفت لدي، مصحوبة بالقهقهة، الإحساس المقيم بلا وعي بضرورة البحث في حياتي وأفكاري عن معادلاتها المعنوية. وربما سلّط هذا البحث المقيم بعض الضوء على قصة العين.

في ما يلي أنهي تعداد تلك الذرى في سياق نزاعاتي الشخصية المؤلمة.

لم يكن ممكناً أن أماثل بين مارسيل وأمي. مارسيل هي المجهولة ذات الأربعة عشر ربيعاً، التي رأيتها ذات يوم في المقهى جالساً قبالتي. أو تقريباً.

بعد مضي بضعة أسابيع على جنون أبي، أصيبت أمي هي أيضاً، إثر مشادة حادة مع جدتي، بالجنون. وعاشت فترة طويلة من الاكتئاب. وكانت أفكار اللعنة التي تسيطر عليها تثير غضبي



وترغمني على مراقبتها باستمرار. كان هذيانها يخيفني إلى حد جعلني، ذات مساء، أخفي شمعدانين بقاعدتين رخاميتين عن رفّ المدفأة خشية أن تضربني أثناء نومي، بأحدهما على رأسي. وبلغ بي فقدان صبري عليها مبلغاً أجبرني على ضربها لاوياً ذراعيها إلى خلف ظهرها محاولاً أن أعيدها إلى رشدها.

ذات يوم اختفت أمي منتهزة سهوي عنها لبعض الوقت. بحثنا عنها طويلاً؛ إلى أن وجدها أخي، على الرمق الأخير، وقد شنقت نفسها في العليّة لكنها لم تمت.

ثم اختفت للمرة الثانية: وبحثت عنها طويلاً عند ضفة الساقية حيث كان من المرجّح أن تغرق في مياهها. اجتزت المستنقعات راكضاً إلى أن وجدتها في إحدى الطرق، أمامي: كانت ثيابها مبلّلة حتى الحزام ومياه الساقية تقطر من أطرافها. فقد تمكنت، بنفسها، من الخروج من مياه الساقية المجمدة (كنا في عزّ الشتاء)، التي لم تكن بالعمق الكافي لتغرقها.

مثل هذه الذكريات لا تستوقفني عادة. لقد فقدت، بمضيّ هذه السنوات الطويلة، كل تأثير ممكن عليّ: لقد جعلها الزمن محايدة، ولا يمكنها أن ترجع إلى الحياة إلا محوّرة، كأنها سواها، لشدة ما اكتست، في سياق تحويرها، معنى إباحياً.




مكتبة
الفكر الجديد

مخطّط تتمّة لـ «حكاية العين»

على أثر خمسة عشر عاماً من الفسق الأكثر فأكثر فحشاً، انتهى الأمر بسيمون في معتقل تعذيب. ولكن خطأ؛ سرد للعذابات والدموع، وبلاهة الشقاء؛ غير أن سيمون، إثر محادثة، تحظى بشفاعة امرأة منزوفة من سلالة أتقياء كنيسة أشبيلية. وتكون بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها. كانت دخلت المعتقل في عزّ صباها، وها هي تغادره وقد تركت الشيخوخة أثراً بيّناً في جسدها. مشهد جميل مع جلاّدٍ أنثى والمرأة التقية: إذ تضرب المرأة التقية سيمون بالسوط حتى الموت، وتنجو سيمون من التجربة. وتموت كما يُمارس الحبُّ، ولكن نقاء (عفاف) الموت وغبائه: الحرارة والاحتضار يبدّلان مظهرها. الجلاّد يضربها، لكنها لا تبالي لا بضرباته ولا بأقوال المرأة التقيّة، لاستغراقها في مشاعر الاحتضار. ليست لذة إيروتيكية بالتأكيد، أنها تفوق ذلك بكثير. ولكنها بلا نهاية. كما أنها ليست نهاية. كما أنها ليست إحساساً مازوشياً، وفي العمق فإن هذه النشوة أكبر بكثير مما قد تعين المخيلة على تصوّره، إنها تفوق أي شيء. غير أن قوامها هو العزلة وغياب الحواس.




مكتبة
الفكر الجديد

الميت

جورج بتاي

عندما هوى ادوار ميتاً، للمرة الثانية اكتنف الخواء كيانها، وسرت في قرارتها رعشة طوّفت بها كملاك. انتصب ثدياها في كنيسة حلم حيث أنهكها المحتوم الذي لا يعوّض. واقفة، بجنب الميت، غائبة، في فضاء ذاتها، بوجد متمهّل، ذاهلة. أدركت أنها قانطة غير أنها تهزأ بقنوطها. لقد توسَّل إليها ادوار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أن تتعرّى.

لم يمهلها موته ريثما تفعل! كانت هناك، مشعَّثة: وقد انبثق ثدياها، فقط، عاريين خلل ثوبها الممزَّق.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تبقى وحيدة
بصحبة ادوار ميتاً

لقد آن أوان التنكُّر للأعراف التي تسترقنا بالخوف. نزعت عنها ثوبها وألقت معطفها على ساعدها. كانت مذهوبة وعارية. هرعت إلى الخارج وركضت في الليل تحت المطر. كان نعلاها يخفقان في الطين والمطر ينهمر عليها. أحسَّت بحاجة للتبول لكنها تمالكت نفسها. في طراوة المروج استلقت ماري على الأُرض. وبالت طويلاً، وغمر البول ساقيها. سوية الأرض دندنت بصوت غريب، ممسوس:

... إنه العري

إنها القساوة...

ومن ثم نهضت وارتدت المعطف المشمَّع واجتازت كيلي عدواً إلى باب النزل.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تغادر عارية

ذاهلة، لبثت واقفة عند الباب تعوزها الجرأة على الدخول. وكان يتناهى إلى مسامعها صراخ وإنشاد فتيات وسكارى. أحسَّت برعدة سرت في بدنها، غير أنها كانت تلتذّ بارتعادها.

قالت في سرِّها: «سأدخل، وسيرونني عارية». وكان عليها أن تتكىء على الجدار. حسرت طرفي معطفها ودسَّت أصابعها الرشيقة في شقٍّ حيائها. أصغت، وقد جمّدها القلق في مكانها، وتشمّمت على أصابعها رائحة الفرج المدنّس. كان الزعيق صاخباً في النزل ومع ذلك ساد صمت. كانت تمطر: في الظلمة المغلقة، كانت الريح الفاترة تجعل حبال المطر مائلة. صوت فتاة أنشد إحدى أغنيات الضواحي الحزينة. وكان الصوت الأجش المكتوم بالجدران إذ يتناهى إلى ليل العراء، مؤثراً. سكت الصوت. تبعه تصفيق وخبط أرجل ثم تهليل.

كانت ماري تنتحب في الظلّ. تنتحب في عجزها، وقد غطّت أسنانها بظاهر كفّها.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تنتظر أمام النزل

سرت رعشة في جسد ماري حالما أيقنت أنها ستدخل.

فتحت الباب، وتقدّمت ثلاث خطوات إلى داخل الصالة: هبة ريح أغلقت الباب وراءها.

تذكّرت أنها لطالما حلمت بهذا الباب الذي ينصفق، دوماً وراءها.

أجراء مزرعة، والباترونة وفتيات رمقوها بنظرات متفرّسة.

لبثت بلا حراك عند المدخل؛ موحلة مبلّلة الشعر لأمَّة النظرات.
كأنها طلعت من هبوب الليل (عزيف الرياح يسمع في الخارج).
وكان معطفها يستر جسمها لكنها فرّجت ياقته.

ماري تدخل إلى صالة النزل

سألت بصوت خفيض:

ـ هل لي بشراب؟

أجابت الباترونة من خلف الكونتوار:

ـ قَدَح كالفا؟



ووضعت قدحاً مترعاً على الكونتوار.

رفضته ماري.

ـ أريد زجاجة وكؤوساً كبيرة، قالت.

كان صوتها حازماً برغم انخفاض نبرته.

وأردفت قائلة:

ـ سأشرب بصحبتهم.

ونقدتها الثمن.

قال الأجير المزارع منتعلاً مداسه الموحل، بشيء من الوجل:

ـ أجئت طلباً للسمر؟

ـ عين الصواب، قالت ماري.

حاولت أن تبتسم: أوجعها التبسُّم.

جلست بجنب فتى وألصقت فخذها بفخذه ثم أمسكت بيده ووضعتها على فرجها.

وعندما لامس الفتى شفري حيائها، غمغم قائلاً:

ـ بحقِّ السماء!

سكت الآخرون في تشنَّج بادٍ.

نهضت إحدى الفتيات وحسرت طرف المعطف.

ـ أنظر، قالت، إنها عارية!

لم تحرك ماري ساكناً وكرعت كأسها بجرعة واحدة.

ـ إنها تعشق الحليب، قالت الباترونة.

أحسّت ماري بلسعه المرّ في حلقها.

ماري تشرب بصحبة صبيان المزرعة



قالت ماري بشيء من الأسى:

ـ قضي الأمر.

كان شعرها المبلّل يلتصق، مخصلاً، بوجهها. هزّت رأسها المثير، نهضت وخلعت معطفها.

جلف في عداد الشرب في الصالة تقدم نحوها. كان مترنحاً في مشيته وذراعاه تتخبّطان في الهواء. صاح قائلاً:

ـ إليّ النساء العاريات!

اعترضت الباترونة طريقه:

ـ سوف أفرك أنفك...

وأمسكته من أنفه وفركته.

فزعق:

ـ لا، من هنا أفضل، قالت ماري.

دنت من السكّير وفكت أزرار بنطاله: واستلّت من السرولة قضيباً رخو الانتصاب.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تستلّ قضيب سكّير

كان أحد الأُجراء جالساً على حدة ويرمقهم شزراً. كان رجلاً وسيماً وينتعل جزمة طويلة ملمّعة من المطاط.

جاءت ماري إليه حاملة الزجاجة. كانت طويلة القامة رشيقتها. ساقاها مترنّحتان ومكسوّتان بجوربين فضفاضين. أمسك الأجير بالزجاجة وعبّ منها.

وصاح بصوت جهوري، آمر:

كفى، ضارباً الطاولة بكعب الزجاجة الفارغة.

سألته ماري:

ـ أتريد زجاجة أخرى؟

أجاب بابتسامة: فقد كان يعاملها كمحظية.

عبأ البيانو الآلي مجدداً، وأقبل بخطى راقصة وقد بسط ذراعيه في شبه حلقة.

أمسك ماري بيدها، ورقصا جاويَّة فاحشة.

استسلمت ماري كلياً، خائرة، وقد ألقت برأسها إلى الوراء.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري ترقص مع بيارو

نهضت الباترونة على نحو مباغت وصاحت:

ـ بيارو!

وقعت ماري أرضاً: فقد أفلتت من بين ذراعي الأجير الوسيم الذي ترنّح مجفلاً.

خبط الجسم النحيل الذي انزلق من بين الذراعين، على الأرضية كما تخرّ بهيمة.

ـ السافلة! قال بيارو.

مسح فمه بمقلب كمّه.

هرعت الباترونة، ركعت ورفعت الرأس برفق: كان اللعاب، لا بل زبد الريق، يسيل من الشفتين.

أحضرت فتاة فوطة مبلّلة.

استعادت ماري وعيها بعد وقت قصير. وقالت بنبرة واهنة:

ـ شراب!

ـ أعطها كأساً، قالت الباترونة لإحدى الفتيات.



أعطينها كأساً. فاحتسته ثم قالت:

ـ المزيد!

صبَّت الفتاة في الكأس. خطفته ماري من يدها كرعت الشراب كأنها على عجل.

وإذ احتضنتها أذرع الفتاة والباترونة، رفعت رأسها:

ـ المزيد! قالت.



ماري يتعتعها السكر

تحلّق الأجراء والفتيات والباترونة حول ماري، في انتظار ما ستفعل.

لم تهمس ماري إلا بكلمة واحدة.

ـ ... الفجر، قالت.

ثم هوى رأسها ثقيلاً. متوعكة، متوعكة...

سألت الباترونة:

ـ ما بها؟

لم يسع أحد أن يجيب.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تريد أن تتكلم

عندها قالت الباترونة لبيار:

ـ مُصّها.

ـ أنجلسها على كرسي؟ قالت فتاة.

تعاونوا على حملها وأجلسوها على كرسي.

ركع بيارو وطوّق عنقه بساقيها.

ابتسم الفتى متفاخراً ودسَّ لسانه في شعرتها.

متوعكة، منوّرة، بدت ماري سعيدة، وابتسمت دون أن تفتح عينيها.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري يمصّها بيارو

شعرت بأنها منوّرة، متجمدة، لكنها تستفرغ بلا حساب تستفرغ حياتها في مصرف المياه.

رغبة مكبّلة تستبقي فيها بعضاً من التوتّر: كانت تودّ أن تفرغ أمعاءها. وتخيّلت رعب الآخرين. ما عاد شيء يفصلها عن ادوار.

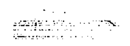
الحياء والإست عاريان: ورائحة الحياء والإست المبتلين تعتق قلبها ولسان بيارو الذي يبلّلها تحسبه برد الموت.

ثملةٌ شراب ودموع ولا تبكي، تتنشّق هذا البرد بفم فاغر: جذبت إليها رأس الباترونة فاتحة شفتيها المغتلمتين.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تقبل الباترونة بفمها



أبعدت ماري الباترونة ورأته، مشعتاً، ذلك الرأس الذي استخفته اللذة. كان وجه المرأة المسترجلة يشرق برقة سكرى. كانت ثملة هي أيضاً، ثملة نشوانة: واغرورقت عيناها بدموع ورعة.

كانت ماري، إذ تنظر إلى هذه الدموع ولا ترى شيئاً، تحيا مغمورة بضياء الموت. قالت:

- إني ظمأى.

وكان بيارو يمصها بنهم.

وسارعت الباترونة وأعطتها قنينة.

شربت ماري جرعات كبيرة حتى أفرغتها.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تشرب من عنق القنينة

... تدافع، صرخة هلع، تقصف زجاجات مكسورة، وفخذا ماري ينتفضان كضفدع. تدافع الفتيان في هرج ومرج. أعانت الباترونة ماري ومدّدتها على مقعد عريض.

بقيت عيناها خاويتين، منتشيتين.

الريح، الهبوب، في الخارج، على أشدّه. وفي الليل شمع اصطفاق الدرف.

ـ إسمعي، قالت الباترونة.

سُمع عويل ريح بين الأشجار، متماد يئنُّ مثل نداء ممسوسة.

في تلك اللحظة شرِّع الباب على مصراعيه. دلف الهبوب إلى الصالة.

وعلى الفور انتصبت ماري العارية واقفة.

صاحت:

ـ ادوار!

وجعل القلق صوتها تصدية لعويل الريح.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تبلغ الرعشة

من ذاك الليل خرج رجل يطوي مظلته بمشقة، خياله خيال جرذ تراءى في صدع الباب.

ـ هيا يا سيدي الكونت! أدخل، قالت الباترونة. ترنحت.

أقبل القزم صامتاً.

ـ إنك مبتل، قالت الباترونة وهي تغلق الباب.

كان الرجل الصغير يتسم برصانة مذهلة؛ عريض المنكبين؛ أحدب؛ ورأسه الضخم جاثم سوية الكتفين.

بادر ماري بالتحية ثم استدار ملتفتاً إلى الآخرين.

ـ نهارك سعيد يا بيارو، قال وشدّ على يده مصافحاً، انتزع عني معطفي لو سمحت.

أعان بيارو الكونت على نزع معطفه. وقرصه الكونت في فخذه.

ابتسم بيارو. وراح الكونت يصافح الحاضرين بمودّة.

ـ لو سمعتم؟ قال وهو يهم بالجلوس.



جلس إلى طاولة ماري، قبالتها.

ـ أسعفَينا بالقناني، قال الكونت.

ـ لقد شربت، قالت فتاة، حتى بلت على الكرسي.

ـ اشربي حتى الخراءة، يا صغيرتي...

وسكت فاركاً راحيته.

بشيء من المرح.



ماري تلتقي قزماً

لبثت ماري بلا حراك تراقب الكونت، مشوشة بالدوار.

ـ أسكب، قالت.

ملأ الكونت الكؤوس.

وأردفت قائلة بكثير من الحكمة:

ـ سأموت عند الفجر...

رمقها الكونت بنظرات فولاذية زرقاء.

وشمّر حاجبيه الأشقرين مغضناً جبينه العريض.

رفعت ماري كأسها وقالت:

ـ إشرب!

رفع الكونت كأسه أيضاً وشرب: وابتلعا ما شرباه معاً في لحظة واحدة.

جاءت الباترونة وجلست بجنب ماري.

ـ إني خائفة، قالت لها ماري.



لم ترفع أنظارها عن الكونت.

أصابها ما يشبه الفواق: وهمست بنبرة مسّ في أذن العجوز:

ـ إنه شبح ادوار.

ـ أي ادوار؟ سألت الباترونة بصوت خفيض.

ـ لقد مات، أجابت ماري بصوت مماثل.

ـ أمسكت يد المرأة وعضّتها.

ـ أيتها الفاسقة، صاحت المرأة المعضوضة. وبعد أن حرّرت يدها منها راحت تداعب ماري مقبّلة كتفها، وقالت للكونت.

ـ إنها رقيقة، برغم ذلك.



ماري ترى شبح ادوار

سأل الكونت بدوره:

ـ من هو ادوار؟

ـ أما عدت تدري من أنت؟ قالت ماري.

وتهدج صوتها هذه المرة، حين قالت للباترونة:

ـ دعيه يشرب.

بدت على الرمق الأخير.

كرع الكونت كأسه واعترف قائلاً:

ـ إن الشراب لا يؤثر فيّ إلا قليلاً.

وتفرّس الرجل الصغير ذو المنكبين العريضين والرأس الهائل، بعيون كابية كأنه يتعمّد إزعاجها.

كان يحدق بكل شيء بالطريقة نفسها، ثابت الرأس بين كتفيه.

ونادى:

ـ بيارو!



اقترب الأجير:

ـ إن هذه الفتاة الصغيرة تجعلني منتصباً هلا جلست هنا؟

ولما جلس الأجير، أردف الكونت قائلاً:

ـ أسدِ لي معروفاً يا يارو، وخض قضيبي. فأنا لا أجرؤ على الطلب من هذه الطفلة...

وابتسم.

ـ فهي لم تعتد المسوخ بعد كما اعتدتها أنت.

في تلك اللحظة وقفت ماري على المقعد العريض.



ماري تقف على المقعد

إني خائفة، قالت ماري. إنك تشبه نصباً.

لم يجب. وأمسك بيارو قضيبه.

كان جامداً بالفعل مثل نصب.

ـ هيا، إذهب من هنا، قالت له ماري، وإلا بلت عليك...

وقفزت ماري إلى الطاولة وبركت عليها.

ـ إن ذلك ليكون من دواعي سروري، أجابها المسخ. كانت رقبته متصلبة وإذا تكلم لم يتحول سوى ذقنه.

بالت ماري.

وبشبق كان بيارو يخض قضيب الكونت الذي غمر البول وجهه.

كان الكونت يحمر والبول يغمره. بيارو يخض الذكر كما يضاجع. فقذف القضيب منيه على السترة. وراح القزم ينخر برعدات تهزّ بدنه من رأسه حتى أخمص قدميه.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تبول على الكونت

كانت ماري لم تفرغ بعد من التبوّل.

وقفت على الطاولة وسط القناني والكؤوس وراحت تبلل يديها بالبول.

وتمسح بهما فخذيها واستها ووجهها.

ـ إنظر، قالت، إنني جميلة.

وإذ بركت رافعة فرجها بموازاة رأس المسخ، راحت تفرج شفري حرها بعنف مخيف.

ماري تغمر نفسها بالبول

ارتسمت على شفتي ماري ابتسامة مرة.

رؤيا هي نذير رعب...

انزلقت إحدى قدميها فارتطم فرجها برأس الكونت.

اختلّ توازنه ووقع أرضاً.

فتقلبا معاً على الأرض متضاحكين بصخب أصمّ.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تقع على المسخ

تشابك جسداهما سوية الأرض.

كأن ماري أصيبت بمس مفاجىء. فعضت ذكر القزم الذي زعق بأعلى صوته.

أفقدها بيارو وعيها. ومددها مصلبة الذراعين: وكان الآخرون يمسكون بساقيها.

أنت ماري:

ـ دعني.

ثم سكتت.

وتلاحقت أنفاسها، مغمغمة العينين.

فتحت عينيها، كان بيارو محتقن الوجه متعرقاً وجائماً فوقها.

ـ ضاجعني، قالت.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تعضّ قضيب القزم

ـ ضاجعها يا بيارو، قالت الباترونة.

وعلا هرجهم حول الضحية.

أرخت ماري رأسها، وقد ضاقت بهذه المقدمات. مدّدها الآخرون وفرّقوا ما بين ساقيها. كانت أنفاسها متسارعة بنخر مسموع.

كان المشهد ببطئه يشبه مشهد ذبح خنزير أو مواراة جثمان إله.

خلع بيارو سرولته، فأصرّ الكونت على أن يفعل وهو عار تماماً.

اندفع الفتى اندفاعة ثور: وزلق له الكونت باب الحر. اختلجت الضحية وتمطت: في التحام حقد لا يوصف.

كان الآخرون يراقبون وقد جفّت أفواههم وأذهلهم عته العناق.

كان الجسدان ملتحمين بقضيب بيارو يتقلبان على الأرض برهز ونهز. وأخيراً، أطلق الأجير الذي قوّس جسمه بعنف، نخيراً مصحوباً بزبد فأجابته ماري بتشنج ميت.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري يضاجعها بيارو

... استعادت ماري رشدها.

كانت تسمع تغريد عصافير عند فنادة دغل.

كان تغريدها مفرطاً برهافته ينأى مزقزقاً من شجرة إلى شجرة. ومستلقية على العشب انتبهت إلى أن السماء صافية: ففي تلك اللحظة كان ينبلج الفجر.

أحست بالبرد، وقد ألمت بها غبطة صقيعية، معلقة في فراغ مستغلق. ومع ذلك كم كانت تودّ لو ترفع رأسها، برفق، لكنها، منهوكة، أرخته مجدداً على التراب، ولبثت وفية للضياء، لأوراق الشجر، للطيور التي انتخبت الغابة ملاذاً. لهنيهة راودتها ذكرى وجل الطفولة. ورأت أمام عينيها رأس الكونت الضخم محنياً عليها.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تصغي إلى عصافير الغابة

ما استقرأته ماري في عيني القزم كان إلحاح الموت. فهذا الوجه لا يعبر إلا عن زوال الفتنة إلى الأبد؛ وهاجساً ما يجعله تهكمياً. أجفلت لشدة الكراهة، وأمام الموت الوافد شعرت بالخوف.

نهضت وهي تكزّ على أسنانها قبالة المسخ الراكع.

ولما انتصبت واقفة سرت بها رعشة.

تراجعت إلى الوراء، ورمقت الكونت وتقيأت.

ـ أترى، قالت.

ـ أتشعرين بتحسن الآن؟ سأل الكونت.

ـ لا، قالت.

رأت القيء أمامها. ومعطفها الممزّق يكاد أن لا يستر جسمها العاري.

ـ إلى أن نذهب؟ قالت.

ـ إلى بيتك، أجاب الكونت.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري تتقيّا

إلى بيتي، غمغمت ماري قائلة. وعاودها الدوار.

ـ هل أنت الشيطان لترغب في الذهاب إلى بيتي؟ سألت.

ـ أجل، أجاب القزم، لقد قيل لي أحياناً أنني الشيطان.

ـ الشيطان، قالت ماري، سأَتغوّط أمام الشيطان!

ـ لقد تقيأت منذ قليل.

ـ وسأتغوّط.

قرفصت وتغوطت على القيء.

كان المسخ لايزال راكعاً.

أسندت ماري ظهرها إلى جذع سنديانة. كان العرق يتصبب منها، وهي حالة هذيان.

قالت:

ـ كل هذا مما لا يذكر. ولكن في بيتي سوف تخاف... فيما بعد...

سمعت ماري ما قاله الكونت فحدجته بنظرات ثاقبة. نهض:



ـ لم يسبق لي، همس قائلاً، أن خاطبني أحد على هذا النحو.

ـ بإمكانك أن ترحل، قالت. ولكنك إن أتيت...

قاطعها الكونت بجفاء:

ـ إني أتبعك. سوف تهبينني نفسك.

لم تخفف من عنف لهجتها:

ـ حان الوقت، قالت. تعال.



ماري تصطحب الكونت

سارا مسرعين.

وعندما وصلا كان الصباح في أوج ضيائه. دفعت ماري بوابة الحديد. وسلكا ممراً بين شجرات مسنّة: وكانت الشمس تذهِّب هاماتها.

كانت ماري بكل شراستها تدرك أنها متآخية مع الشمس. أدخلت الكونت إلى غرفتها.

ـ قضي الأمر؛ قالت في سرّها. كانت في وقت ما متعبة وحاقدة ولا مبالية.

ـ إخلع ثيابك، قالت، إني أنتظرك في الغرفة المجاورة.

خلع الكونت ثيابه متمهلاً.

كانت الشمس تلطخ الجدار بأشعتها المنسربة خلل أوراق الشجر، وكانت لطخات الضوء تتراقص على الجدار.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري والقزم يدخلان إلى البيت

انتعظ الكونت.

كانَ ذكره طويلاً مائلاً إلى الاحمرار.

في جسده العاري وقضيبه المنتصب شيء من تشوه الشيطان.
وبدا رأسه الغارق بين كتفيه المربوعين والعاليين، شاحباً ساخراً.

كان يشتهي ماري ويقصر أفكاره على شهوته تلك.

دفع الباب. كان عريها كئيباً وهي تنتظره عند حافة السرير،
كانت فاحشة ودميمة: فقد أنهكها السكر والتعب.

ـ ما بك؟ قالت ماري.

كان الميت يملأ الغرفة بفوضاه...

غمغم الكونت برفق:

... كنت أجهل...

وكان عليه أن يسند طوله إلى متكأ: زال انتصابه.

ارتسمت على شفتي ماري ابتسامة مرعبة.

ـ قضي الأمر! قالت.



بدت بلهاء ويدها اليمنى أمبولة محطّمة ثم هوت على الأرض.



ماري شوت

... أخيراً عربتيّ دفن الموتى متجهتين إلى المقبرة إحداهما تتبع الأخرى ببطء.

برطم القزم بين أسنانه:

ـ لقد نالت مني...

لم يرَ الفتاة واستسلم لانزلاقه.

خبط جسم ثقيل عكر، للحظة، صمت المياه.

بقيت الشمس.




مكتبة
الفكر الجديد

ماري توافي الميت تحت التراب

إذا كنت تخاف كل شيء، إقرأ هذا الكتاب ولكن قبل أن تفعل، إصغِ إليّ: إن ضحكت فهذا يعني أنك خائف. فالكتاب، على ما يتراءى لك، إنما هو جماد. هذا ممكن. ومع ذلك، ماذا ـ وهذا افتراض جائز ـ لو كنت لا تجيد القراءة؟ أعليك أن تخشى.. هل أنت وحدك؟ هل تشعر بالبرد؟ أوتدرك كم أن الإنسان هو «ذات نفسك»؟ أبله؟ وعار(*)؟

ج.ب

(*) مفتتح «مدام ادواردا».




مكتبة
الفكر الجديد

حكاية العين

هذا الكتاب

إذا كنت تخاف كل شيء ، إقرأ هذا الكتاب ، ولكن قبل أن تفعل ، إصغ إليّ : إنْ ضحكت فهذا يعني أنك خائف .

فالكتاب ، على ما يتراءى لك ، إنما هو جماد ، هذا ممكن ، ومع ذلك ، ماذا- وهذا افتراض جائز - لو كنت لا تجيد القراءة؟ أعليك أن تخشى . . .؟ هل أنت وحدك؟ هل تشعر بالبرد؟ أوتدرك كم أن الإنسان هو «ذات نفسك»؟ أبلهٌ؟ وعار؟



منشورات الجمل